

خلال رحلتنا في هذه الحياة نلتقى بأشخاص لهم تأثير عميق في حياتنا. إحدى هذه الشخصيات التي حفرت في حياتي انطباعاً فريداً هي ايلين كولمان. كان عمري ١٨ سنة حين إلتقيت أول مرة بهذه السيدة الطويلة المتألقة. يوجد شئٌ خاصٌ ومميزٌ في هذه الشخصية كخادمة في صحراء الأردن ،فهي تبدو وكأنها في المكان الصحيح. تتميز بخفة الظل وروح المرح ولديها ابتسامة تجبر الآخرين على الابتسام.

لكن لديها أيضاً روح إصرار ومثابرة مدهشة، وإيمانٍ يمسك بالله الذي ينقل الجبال. لقد رأيتها تعمل بكل اجتهاد من كل قلبها بكل اتزان وتعطى كل شيء حقه من الوقت، العمل يأخذ حقه والراحة حقها.

رأيتها تخدم باتضاع ووداعة بين الفقراء البسطاء ورأيتها أيضاً في حضرة الملوك والأمراء.

لم تترك فيّ أنا وحدي أثراً عظيماً بل أثرت في شعب بأكمله. كيف لإمرأة من قلب أستراليا تأتي وتحدث هذا التغيير العظيم في شعب عربي كبير.

أثق أن قصتها سوف تجذبك وفي نهايتها ستدرك أن يد الله هي التي تحرك أحداث الحياة. هذه المرأة العظيمة هي شمعة أضاءت وسط الظلام وهي نموذج لما يمكن أن يفعله الله بحياة قد استودعت بين يديه وكُرست بالتمام له.

والذي عمل في حياة ايلين سوف يعمل في حياتك.

أثق أن هذه القصة الرائعة ستكون سبب بركة وتشجيعٍ كبيرٍ لك.

فرانكلين جراهام

رئيس ومؤسس خدمة محفظة السامري

سبتمبر ١٩٩٩

" فأرة الصحراء "

"ملاك الصحراء" دعاها المعجبون بها
بينما إن سألتها، سيكون جوابها
" فأرة الصحراء " هكذا تدعو نفسها

لا تختلف كثيراً عن معظم الناس
عندها احتياجات ولديها إحساس
لكن أفعالها تميزها بتفرد خاص
من حب وعطاء، تضحية وإخلاص

النجاح عندها لا يقاس بالأرقام
أو بصيت ذائع بين حشود الأنام
إنما بمحبة للبدو وشفاء للسقام
لخروف تاه فترده عن سبل الظلام

لذا
أتوق أن أحكى لكم الآن روايتها
يليق أن اخلع قبعتي تقديراً لها
و "ملاك الصحراء" لقبُ
يليق بها

أو " فأرة الصحراء " كما تدعو نفسها !.

الفصل الأول

قلب الملك فى يد الرب

لا أذكر جيداً فى أية ساعة بالضبط حين تلقيتُ مكالمة تليفونية يوم ٢٥ فبراير عام ١٩٩٦ وكان على الطرف الآخر من الخط صوت الدكتورة "إليانور سولتاو" طبيبة الأمراض الصدرية والخادمة بين مرضى السل من البدو في منطقة الشرق الأوسط. كانت نبرة صوتها تنم عن شيءٍ أليمٍ قد حدث.

أنيت، ستكون ايلين على موعدها معكِ، لكنى فقط أردتُ أن أخبركِ بأنها قد أصيبت فى حادث سيارة مروّع هى واثنان من الخدام اللذين كانا يرافقانها، وقد تم نقلهم جميعاً إلى مستشفى المدينة.

أثناء توجههم نحو الطريق السريع اصطدمت بهم سيارة أخرى من جانب السائق، يقودها سكيرٌ بسرعة جنونية، حوالى ١٦٠ كم / الساعة .
وقد أصيبت ايلين بكثير من الجروح والكسور المضاعفة، ثمانية أضلاع مكسورة وخرق فى الرئة والكلية وذراع مكسورة وتهشم فى الحوض والفقرات القطنية. ثم أضافت د. إليانور، من المخطط أن زيارتكِ لنا ستكون فى مارس القادم ومن رأيي أنه من المستحسن تأجيلها .

كنت أسمع صوتاً ضعيفاً من الخلف يقول: دعيهم يأتون على أية حال. إنه ردٌ نمطيٌ يخرج من قلب ايلين كولمان صديقتى العزيزة والمرضة المعتمدة ومديرة مستشفى وأيضاً شريكة خدمة طويلة المدى للدكتورة إليانور سولتاو.

تعلمتُ مؤخراً درساً عظيماً لمس قلبي بعمق، كانت لايلين صديقة حميمة من الأردن وهى الأميرة (ز) ذات القرابة للملك. كانت جالسة خارج غرفة المستشفى حين استفسر جلالته الملك عن سبب بكاء الأميرة بهذا الشكل.

ولما وصفت الأميرة لجلالته تفاصيل الحادث المروّع، عبّر عن أسفه الشديد وتعاطفه وقال لها : أرسلنى لى كل فواتير المستشفى.

بدا لى أكثر من أى وقت مضى كإشراق نور أضاء حولى ما لمستهُ من تأثير مدهش لسيدتين مسيحيّتين تعملان فى بلد غير مسيحي لدرجة أن الملك نفسه قدّر خدمتهما الداخلة بالرحمة والشفاء ورقة الأحشاء تجاه أحبائه البدو.

ها هو يُظهر كرمًا ملكياً واهتماماً بخادمة المسيح وتفضّل بتغطية تكاليف هذا الحادث المأساوى وهذه ليست نهاية القصة بل بقى الكثير من السخاء والاهتمام الذى ظهر لاحقاً.
بعد فترة من الوقت ، كتب زوجى خطاباً للملك يشكر فيه حسن معاملته وجزيل لطفه الذى أبداه تجاه ايلين وأن مشاعره الطيبة وتقديره لها مثل طيب فاح عطره وذاع خبره.

هل يأتري رد الملك ؟ ومن يتوقع رداً من ملك مشغول بأعباء ومسئوليات كثيرة ؟. ملك يحكم دولة فى منطقة ملتهبة، لكنه بالفعل أرسل رسالة شخصية مذهلة لم نشهد رسالة كتبت بهذا الأسلوب من قبل.

كانت التحية الافتتاحية للرسالة بخط يديه بينما موضوع الرسالة كان مطبوعاً، أما الخاتمة والتوقيع كانا بخط يديه مرة أخرى.

وتسلمنا الخطاب باليد بصورة خصوصية من السفير فى واشنطن مُرفقاً معه الكارت الشخصى للسفير وبداخل الظرف الضخم يوجد ظرف آخر مختوم بالختم الشمعى الملكى ومن الواضح أنه تم تسليمه باليد فى واشنطن وأرسل إلينا بالبريد وكان الخطاب يحتوى على دعوة شخصية من الملك ليستضيفنا عنده طيلة الوقت الذى سوف نقضيه فى الأردن. كما يحتوى على تقرير مشجع عن تحسن الحالة الصحية لايلىن كولمان بالإضافة إلى التعبير عن امتنانه وتقديره للخطاب المرسل من زوجى إليه.

وقد أشار أيضاً إلى أنه يرجو لو أمكن أن يستقبلنا بنفسه عندما نصل. أدركنا بالطبع أن هذه الدعوة الشخصية بكل ما تحمله من مشاعر طيبة ليست بسببنا نحن لكنها تعود بالأكثر إلى مدى تقديره لحياة وخدمة ايلىن كولمان. إن مواقف الملك الطيبة استحضرت لذاكرتنا ما ورد فى سفر الأمثال (١:٢١) "قلب الملك فى يد الرب كجداول مياه حيثما شاء يُمِيلُهُ".

ومن جانب ايلىن و إيلانور فإن هذه الأحداث ينطبق عليها ما جاء فى موضع آخر من كلمة الله "لكى تسلكوا بلياقة عند الذين هم من خارج" (١ تس ٤: ١٢). فى شهر نوفمبر من نفس العام ، اتجهنا إلى الأردن كضيوف للملك وأصرّت ايلىن أن تكون مُرشدة لنا فى تلك الرحلة برغم الألم الذى كان يُلازمها طوال الوقت منذ وقوع الحادث الرهيب.

الرحلة كانت رحلة تاريخية كأنها حلم جميل لن يمحوها الزمن منذ لقائنا مع اثنين من سائقى السيارات المرسيديس الملكية على الجسر .إحدى السيارات لحقائنا والأخرى مخصصة لنا وبفس الطريقة عند عودتنا بعد ثمانية أيام.

كان فى استقبالنا اثنان من الحرس الملكى فى رفقة ايلىن، وبعد أن رحّبوا بنا ترحيباً حاراً، جزنا نحن وحقائنا من خلال صالات الجمارك وبوابات الهجرة بسرعة فائقة لم نخبرها فى كل ترحالنا من قبل.

وصعدوا بنا من وادى الأردن إلى عمّان حيث كانت إقامتنا هناك فى فندق إنتركوننتال وقد أتاح القصر غرفة خاصة لايلىن حتى نتمكن من قضاء كل الوقت مع صديقتنا العزيزة. وكان معنا نفس السائق - طوال تلك الرحلة المثيرة - برتبة نقيب ومرتبداً بدلة عسكرية أنيقة و بيرييه ويحمل سلاحاً فى وسطه.

أخذنا إلى أفخم المطاعم وأشهر المواقع والأماكن التاريخية. من الواضح أن البرنامج مُعد إعداداً جيداً من أجلنا بواسطة مساعد الملك ورئيس البروتوكول.

الشيء الأكثر أهمية هو أننا رأينا أخيراً ما كنا نسمع ونصلّي من أجله طوال هذه السنين وهو مستشفى النور لمرضى السل.

تقع مستشفى النور في شمال الأردن بالقرب من الحدود الأردنية السورية خارج قرية "مفرق" ويحيط بها حقول الزيتون الغنية والحدائق والبساتين. ياله من تباين عجيب بين الخضرة الناضرة في موقع المستشفى وبين الصحراء المجدبة من حولها.

كانت المستشفى نظيفة جداً والتعقيم الملحوظ فيها لا يمنحك من الشعور بالراحة والترحاب والدفع.

لقد أعجبتُ وتأثرتُ جداً بالوجوه البشوشة للمرضى هناك بالرغم أننا وصلنا في وقت استراحة الأطفال لكن سمحوا لنا بزيارة الجناح الخاص بهم على أية حال. وواضح أنهم كانوا متوقعين زيارتنا أو على الأقل هذا ما شعرنا به لأننا بمجرد أن دخلنا إليهم وجدناهم جالسين على أسرّتهم وقد ارتسمت ابتسامة مبهجة على وجوههم الصغيرة يالها من لحظات مؤثرة ومثيرة، ياله من ترحاب سعيد من قلوب عميقة الحب. وبعد انتهاء فترة الراحة بوقت قليل لحق الأطفال بنا وأنعشنا بإحتفال امتلأ بالترانيم التي تعلّموها من فريق العمل بالمستشفى.

بالطبع من الصعب أن تُبرمج أداءً هكذا كأدائهم. لقد كان ممتعاً ومبهجاً من أطفال ذوي عيون سوداء جميلة لامعة ووجوههم تشع منها براءة الطفولة. وشملت زيارتنا جناح للنساء وهن أيضاً يملُكن تلك العيون الأسرة.

وبعض الأمهات الصغيرات اللواتي كن ينمن على أسرّتهن وقد بدا عليهن عمرٌ أكبر من عمرهن الحقيقي وعلامات وآثار الزمن تبدو عليهن لمزيح من الأسباب بين الإنجاب في سن مبكرة وأسلوب الحياة الشاق البدائي في خيام الصحراء ، بالإضافة إلى شراسة المرض وإهماله وعدم معالجته بصورة صحيحة إلى أن جاءوا إلى المستشفى عندما ساءت بهن الأحوال ، كل هذا ساهم في ظهور علامات تقدم السن مبكراً. الاحصائيات بصفة عامة تظهر- بعكس ما في الغرب - أن الرجال في تلك الثقافة يعيشون عمراً أطول من النساء.

عبّرت النساء عن فرحتهن لنا بترحيب ودود وقد ارتسمت ابتسامة لطيفة على وجوههن. أضافت إيلين أنهن قليلو الشكوي والتذمر ليس كما نفعّل نحن في الغرب. إنهن متمالكات أكثر ويواجهن ظروف الحياة الصعبة برباطة جأش ، لمس قلبي بساطتهن وتلقائيتهن. وأثار إعجابي إحساسهن بالفخر والاعتزاز والاعتماد على النفس.

وكما أن اسم المستشفى هو النور، فبالفعل شعرنا أن سراج من نور يرافقنا ونحن نتجول في عنابر المستشفى. كان النور متألقاً ليس فقط في فريق العمل في المستشفى لكن انعكس ضياؤه على وجوه المرضى.

قال الرب يسوع: "أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة" (يو ٨: ١٢)

وشعرتُ أن الله يبتسم بطريقة خاصة في وجه تلك المجموعة من الخدام، خدام الرحمة. بينما نطوف بهذه الجولات الرقيقة ونرى كيف تُثمر عن شفاء وسعادة لم يملكنى سوى التأمل في قول الرب:

"بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبى فعلتم". (مت ٢٥: ٤٠).
وقد تمكنا من رؤية العيادة الخارجية في رأس النقب والتي تبعد حوالى ٣٠٠ كم نحو الجنوب بالقرب من مدينة (معون) والمدينة العتيقة (بترا) والتي تقع على قمة جبل إرتفاعه ١,٦ كم، يطل على منظر يخلب العقول.

بالفرحة عندما نعاين واحة الشفاء الروحي والجسدي في تلك الصحراء العاقر، وكانت هناك مستشفى أخرى صغيرة على بعد ١٠٠ متر من العيادة، كانت سابقاً سجناً ثم قسم شرطة، وتم تحويله مؤخراً إلى مستشفى يمكنها استقبال مرضى أيضاً و كل ما تحتاج إليه هو بعض المال اللازم للتشطيبات وفريق للعمل.

بمجرد أن بدأنا جولتنا السياحية، اندهشنا من جمال الأردن الذى لا يُوصف، من المواقع التاريخية ومن أماكن مقدسة (بها أحداث كتابية) و التى ستظل مشاهدتها محفورة في ذاكرتى ما حبيت وهو قمة جبل نبو، ومدينة بترا المذهلة بما فيها من آثار وأحجار متعددة الألوان، وأطلال جرش.

أحد المناظر العجيبة من قمة جبل نبو هو وادى الأردن والبحر الميت، وجبال أرض الموعد التى يمكن أن تراها من هناك حيث وقف موسى قبالتها، وألقى خطابه الأخير لبني إسرائيل. وبسبب خطاه لم يشأ الرب له أن يدخل مع الشعب إلى أرض الموعد بل كُفِّت يشوع بهذا الأمر.

كان يوماً بارداً و عاصفاً والسماء مسودة بالغيوم وتساقطت قطرات المطر بينما كانت ايلين تلتقط صورة لمدينة القدس وقد أُلقت الشمس بأشعتها تجاهها مباشرة فجعلتها مضيئة. فى لحظات تأمل أدركنا ما قصده الزائرون القدماء لمدينة القدس عندما دعوها "أورشليم الذهبية".

ومن أكثر الأشياء روعةً وإثارةً فوق جبل نبو هو النصب المنحوت بشكل مذهش (الذى يبدو من النظرة الأولى أنه يأخذ شكل صليب) وعندما ندقق النظر نجده يُجسّم لنا ما جاء فى كلمة الله:

"وكما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يُرفع ابن الإنسان لكى لا يَهْلِك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية" (يو ٣: ١٤-١٥).

كان النصب عبارة عن عمودٍ رأسيّ تلتف حوله الحية النحاسية، وعارضة الصليب تأخذ شكل ذراعىّ إنسان متدلّية بعد موته والجزء الأعلى من الصليب يأخذ شكل رأس إنسان منكسة للأمام فى وضع الموت وجسم الحية يأخذ شكل هالة تحيط بهذه الرأس.

وكأنّ شكل الحية المُعلّقة على هذا العمود يرسم لنا صورة قريبة من الرب يسوع وهو على الصليب لحظة موته، وهذا الرمز يلمع وينكشف مدلوله في ضوء ما جاء فى ٢كو ٥: ٢١ حيث يقول الكتاب "لأنه جعل الذى لم يعرف خطية، خطية لأجلنا، لنصير نحن بَرّ الله فيه".

عندما أوشكت رحلتنا على الإنتهاء كنا فى ضيافة الأميرة على العشاء وعندما رأيت تقديرها ومشاعرها تجاه ايلين انتعشت نفسى و كان احترام الأميرة لها قد أثلج صدرى. ودعم الأميرة للعمل فى المستشفى مرض السل كان واضحاً. ما أروع أن ترى الأميرة الفاتنة والمتحضرة خريجة كلية أمريكية وهى فردٌ من العائلة الملكية وهى ترتدى مع ايلين عباءة بدوية تخدمان فى الصحراء بين البدو. لك أن تتصور التأثير العميق على نفوس البدو سكان الخيام وهم يرون الأميرة تأتى إليهم فى حر النهار أو البرد القارس لكى تكون معهم لتملأ احتياجاتهم الأساسية على الصعيد الصحى والإنسانى.

كنا نستقبل مكاملة من مساعدة رئيس البروتكول كل يوم فور عودتنا من رحلاتنا المثيرة لتسألنا عن مدى استمتاعنا وحال يومنا. وفى آخر يوم من رحلتنا للأردن جاءت إلينا إلى الفندق وهى تحمل هدايا شخصية لنا من جلالة الملك كتذكّار لهذه الرحلة. (كان الملك خارج البلاد طيلة الوقت الذى كنا نحن فيه فى البلاد) وقد أهدى ايلين أيضاً ساعة يد ثمينة وأهدانا صندوقاً فضياً عليه توقيع وختم الملك محفوراً على الغطاء. طوال الوقت الذى قضيناه فى تلك الرحلة كنت أشعر أننى فى حلم أسطورى جميل لا أريده أن ينتهى. ثم عدنا مرة أخرى بالموكب الملكى إلى منطقة جسر النّبي بسيارات الملك كما أتينا.

فى مساء اليوم الأخير لرحلتنا والذى تلقينا فيه تلك الهدايا القيمة التى كانت بالنسبة لنا مثل "كريمة الجاتوه" كنت لم أزل أسمع صدى كلمات ايلين (الآن يمكنكم أن تروا بأنفسكم لماذا نحب الملك ولماذا نحن فخورون به) من الواضح أيضاً أن الملك يكن تقديرأ واحترامأ لاييلين وامتنانأ عظيماً لخدمتها الرحيمة لرعاياه المحبوبين ولم أزل يغمرنى السرور لأن الملك أكرمنا بهذه الضيافة العظيمة، ببساطة ليس لشيء سوى كوننا أصدقاء مقربين لاييلين كولمان. حقاً إن قصتها جديرة بأن تُذكر.

الفصل الثانى " هأنذا أرسلنى "

التقيتُ بايلين لأول مرة عام ١٩٦٨، كان زوجى "لين آدمز" يعمل آنذاك مع بيلى جراهام خادما وكان أيضا يقود أفواجاً سياحية إلى الأرض المقدسة. كان روى جوستافسون أيضاً واحداً من شركاء الخدمة مع بيلى جراهام لديه خبرة كبيرة فى قيادة الرحلات وكان قد دعا عدد من الخدام كى يلتقوا بنا فى كل منطقة نصل إليها ليشاركونا عن أخبار خدمتهم فى تلك المنطقة بالتحديد.

وقد أبلغنا أن خادمة الرب التى سنلتقى بها فى لبنان، قادمة من الأردن ستصل إلى فندق بيروت فى ذات اليوم الذى سيصل فيه الفوج السياحى لتلك المدينة. عندما استعلمنا من موظفة الإستقبال بالفندق عما إذا كانت ايلين كولمان قد وصلت أم لا ، أفادتنا بأنها وصلت بالفعل.

لقد أحببتها من قبل أن أقابلها، ولما إلتقينا بها تكلمتُ إلى الفوج بحماس وغيره، جعلتنا بإنتباه وشغف نتابع أخبار خدمتهم ورؤيتهم. بعد ذلك تحدثتُ معها بعض الوقت واكتشفتُ أننى بالفعل قد تعلقتُ بها.

لقد انبهرت بشجاعتها وذكائها وقوتها. كل هذه الصفات إمتزجت معاً بجاذبية ورقة ساحرة. لقد أعجبتُ بأدائها فى الخدمة وأخلاقيها، فضلاً عن تقواها العديمة الرياء والخالية من الادعاء وجذبني إليها خفة الظل وروح المرح التى كانت تتميز بهما. لقد تبرهن لى أنها سيدة متميزة خلال فترة صداقتنا التى دامت ثلاثين عاماً وتلك الصفات التى تحلت بها تلك الشخصية جعلتنى أكثر قرباً منها وأتوق للإلتقاء بها كلما سنحت لى الفرصة أن أفعل ذلك.

كانت سبباً لتقدم ونمو روحى ملموس فى حياتى إذ التهب قلبى بذات النار المقدسة التى ألهمت قلبها. هذا لا يعنى أنها شخصية فولاذية تنشد الكمال وتستमित فى بلوغه بشكل آلى بل هى شخصية واقعية، حساسة بالدرجة التى تجعلها تعاني من أى إيذاء شخصى وطالما شعرت بالإحباط والإرهاق والوحدة والغضب كأى واحد منا.

لكن لم يكن هناك خصمٌ ينجح فى تكدير علاقتها الشخصية مع الرب ، سريعاً ما تستعيد توازنها ولا يغيب عن عينيها المخلص الحبيب ودعوته لخدمه. وكلما سمعتُ منها عن الأعمال العجيبة التى يعمل بها الله فى حياتها وهى تخدمه ، تشدد إيمانى وازددتُ جرأة وقوة.

بدئى إن بُعد المسافة بين الأردن والولايات المتحدة يجعل الإتصال بيننا محدوداً فعادة ما يكون من خلال المراسلات سواء بالبريد العادى أو البريد الإلكترونى بالإضافة إلى الفاكس

والهاتف. لكن كل زيارة ألتقى بها شخصياً تُمثّل فرصة ثمينة بالنسبة لى وافتراقها عنى يقطع جزء من قلبى ويترك فى داخلى فراغاً موجعاً. تنظر ايلين إلى نفسها على أنها امرأة عادية لكن وجب عليّ أن أقول أنها مثلاً حياً لشيء عادى ُوضع بين يديّ إلهه العظيم ليُخرج منه شيئاً متميزاً غير عادى. دائماً ً تقول لنا أنه ليس فيها شيئٌ متميزٌ فى ذاتها، لكنى أقول أن حياتها نموذجٌ معبرٌ عن من هو "لا شئ فى ذاته" كيف يكون عندما يُسلم نفسه وحياته طائعاً لمشينة الله.

من هى تلك المرأة العظيمة ؟ من أين أنت ؟ ومتى بدأت تتدفق من قلبها تلك المحبة الخاصة لفئة مغمورة من بدو الصحراء ؟

وُلدت ايلين فى باندبرج ، كوينز لاند الجنوبية ، بأستراليا فى ١٩٣٠ أصغر أخواتها السبعة، أبوها كان يعمل محاسباً معتمداً وكانت أمها ربة منزل.

كانت ايلين مغرمة بالرياضة وخاصة السباحة. عندما تخبرك عن الطريقة التى تعلّمت بها السباحة تفهم أنها كانت تجربة عجيبة ومخيفة بعض الشيء، أخذها إخوتها فى مركب وربطوا وسطها بحبل ثم ألّفوها فى الماء فأخذت تعوم، وجدير أن يُذكر فى نهاية الأمر بأنها فازت فى عدة مسابقات للسباحة لاحقاً.

خلال دراستها الجامعية كانت لها شخصيتها القوية و المستقلة التى لا تتطبع أو تتشكّل بواسطة الآخرين، وأبسط ما يمكن أن تصف به نفسها فى تلك الفترة من شبابها هو كونها "المتمردة" أما بخصوص الله فلم يكن هو القوة المحركة أو السائدة فى حياتها المبكرة أو بالحرى لم تكن ترى أو تدرك ذلك.

إتفق أنه فى إحدى الأمسيات قررت أن تحضر اجتماع مسيحى يُعقد فى خيمة وذلك أثناء دراستها الجامعية فى باندبرج وانجذبت ايلين بالرسالة التى سمعتها بطريقة مذهلة وغير عادية ولبت الدعوة بقبول المسيح فى قلبها وتقدمت للأمام لتعلن تكريسها له.

اتجهت قدماً نحو المنصة ثم عادت مباشرة إلى الجناح التى تقيم فيه.

لقد بدأ الرب يعمل فى حياتها بقوة حتى أن التغيير شمل الوظيفة التى كانت تعمل بها فتحولت من التدريس إلى التمريض، وكان التوجه الجديد واضحاً أمام عينيها فالتحقت بمدرسة للتمريض رغم عدم موافقة أبيها على هذا الإتجاه الجديد.

ثم بعدها التحقت بمدرسة للكتاب المقدس وفى السنة الثانية من مدرسة الكتاب المقدس طُلب منها أن تُقدّم بحثاً عن العمل الينوعى فى بلاد منطقة الشرق الأوسط.

أثناء الإعداد للبحث المطلوب تلقت الكلية خطاباً من د.سارة هوزمان طبيبة توليد تعمل بخدمة الشفاء فى إحدى البلاد العربية ناشدت فيه الطلبة أن يرفعوا صلوات خاصة من أجل العمل هناك وطلبت منهم أن يصلّوا على وجه التحديد أن يُرسل الله ممرضة معتمدة خريجة جامعية متخصصة فى التوليد لتُغطى احتياجاً ملّحاً لهذا التخصص هناك.

فبدأت ايلين تُصَلِّي بحرارة ولجاجة شديدة لكي يملأ الرب الاحتياجات التي دُكرت في كلتا الطلبتين.

وبينما كانت تُصَلِّي بدأت تُدرك أنه ينطبق عليها كل الشروط المطلوبة ولديها المؤهلات التي تتوافق مع هذه الدعوة.

ولدهشتها انتهى الأمر بأن تكون هي نفسها إستجابة لصلواتها الكثيرة، لقد عملت مثل أشعياء الذي سمع صوت الرب الذي نادى "مَنْ أُرسل؟ ومن يذهب من أجلنا؟" فأجاب اشعياء "هأنذا أُرسلني" (إش ٦: ٨).

خلال دراستها في كلية الكتاب المقدس، تعرّفت ايلين على شابٍ وسيم زميل لها في الكلية ولديه دعوة واضحة لخدمة الرب فنمت العلاقة بينهما بالمحبة ثم الخطبة على أن تُكَلِّل هذه العلاقة بالزواج.

كانت الدعوة المُلحة في قلب ايلين لخدمة الله في العالم العربي لا تتوافق مع الدعوة التي لدى خطيبها فقد كان تثقله بمنطقة أو خدمة أخرى.

وبعد بحث عميق وصلاة كثيرة من كل منهما وجدا أنه كلما صَلَّى أحدهما أكثر زاد يقينه بالتوجه الذي وضعه الله في قلبه وتأكدا أن اتجاه كل منهما في الخدمة مختلفٌ. وبقلب مجروح متألم لكن بدون أي ندم، فسحا الخطبة وسار كل منهما في طريق دعوة الله له في اتجاهين مختلفين تماماً.

بالرغم من أن حياتها تَنَخر بالعمل والمسؤوليات الكثيرة لمساعدة الآخرين لكن تظل هناك احتياجات أساسية لا تجد رداً شافياً في حياتها الشخصية. أن إعطاءها الأولوية لدعوة الله فوق الدعوة للزواج، هو مؤشر لنضوجها لكن هذا لا يعنى أن هذا القرار الأولي قد أسكت للأبد هذا النوع من الاحتياجات الشخصية.

اختبرت ايلين في مناسبتين مختلفتين الدخول في علاقة عاطفية تطلب بصوت عال الزواج وكان الأمر في كل منهما متعلقاً بشابٍ جذابٍ مؤمنٍ خادمٍ، وفرضت العلاقة نفسها بصورة مُلحة وعميقة و لكن في ضوء القيود الثقافية التي يفرضها هذا الوسط - حتى في الزواج المسيحي- فَضَلَتْ أن تستمر في تكريسها بلا زواج في طريق خدمتها لله.

حتى في أكثر مراحل عمرها نضوجاً رأت ميلاً مُلحاً من رجل أعمال أمريكي ليرتبط بها ودام تعلقه بها مدة عامين ورغم ذلك لم يلق ذلك ترحيباً في أعماقها أو تغييراً في قرار دعوتها للخدمة.

أيام طوال مضت امتلأت بإنجاز عظيم لا يمكن لأحد أن ينجز مثله منفرداً ووحيداً. إن اجتيازها لتلك المُنعطفات الحادة بهذا المستوى من العمق النفسي والعاطفي لم يترك في داخلها أية غيرة أو حسد من الذين قرروا أن يتزوجوا، إن الأمر ليس كذلك مع ايلين ، لا نجد لديها أثراً للندم أو المرارة بل على العكس نجدها تواجه هذه الأمور بقبول، بروح مرحة وصدر رحيب.

كانت مُجتهدة ونشيطة كلما أتاحت الحياة فرصة لذلك، بينما هي تجتاز تلك السنوات التي فيها يكون شريك الحياة مطلبًا مهمًا ، ووجوده ضرورة مُلحة، إمتلأ قلبها قناعة ولم تحسب فقدانه خسارة بل شَبِعَ قلبها من الرضى وانطلقت بقوة قدماً نحو "الأعوام الذهبية".

فى عام ١٩٥٥ اتضحت دعوة الله لها ، استجابةً لصلاتها وتجاوبًا مع صوت الرب َتَوَجَّهَتْ إلى قرية عربية بدائية اسمها "الشارقة" تقع بجوار البحرين فى الخليج العربى (كانت آنذاك بدائية بينما نجدها اليوم متحضرة جدًا بسبب البترول).

إنَّ أقل ما يُوصف به بداية تواصلها مع العالم العربى، إنه قاسئٌ وشاقٌ. كانت لايلىن أوقات عصيبة من الإختبارات المضجرة والمُحيرة. كان جدول حياتها يمتلئ بتوليد الأطفال طوال النهار وطوال الليل فسألته: فى أى وقت كانت تنال قسطاً من الراحة؟. فقالت : عند الاستشفاء من إصابة مرض وقبل إصابة جديدة.

كانت الحالات التى ترد إلى المستشفى – التى كانت تخدم فيها فى الشارقة- هي الحالات المُعقدة والميئوس منها فالسكان المحليون لديهم مخاوف وإفتقاد للثقة فى هؤلاء الأجانب.

كان يُنظر إلى المستشفى من قبل معظمهم على أنها الملاذ الأخير وآخر الحلول المُقترحة عندما يسوء الحال وتفشل الطرق البدوية البدائية أو إذا ساءت حالة الأم ووصلت إلى مرحلة حرجة فيها قد تتعرّض حياتها هى أو مولودها للخطر الشديد.

قالت ايلين :إنها حلقة مستمرة من الموت والتعاسة فى كل مرة يحاولون معالجة خطأ جسيم يرجع سببه إلى ممارساتهم السائدة وفقاً لعوائدهم فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت. عادة تضع الأم مولودها الأول وهى فى سن المراهقة المبكرة وتتم الولادة بمساعدة واحدة من القابلات البدويات فى إحدى خيام الصحراء وطبقاً للعادة السائدة عندهم بعد الولادة بوقت قصير يوضع حجر ملهى على مهبل الشابة الصغيرة لوقف النزيف، وماذا عن الآلام المبرحة المصاحبة لهذا الأسلوب ؟ لا يمكن أن تصف هوله الكلمات !.

لم يكن التخدير معروفاً فى حياة الصحراء ، هل من حل يضع حدًا لمعاناة النساء وصرخات الوجع؟. هذا كان أسوأ ما فى الوضع آنذاك.

ونتيجة لهذه الممارسة يتكون على المدى الطويل ندوبٌ صلبٌ فى نسيج الرحم يشبه الغضروف وعند ولادة المولود الثانى يفقد النسيج مرونته ويكون مانعاً لفتح الرحم عندما يأتى المخاض.

عندما يواجه فريق العمل بالمستشفى حالات كهذه يضطرون إلى فتح عنق الرحم حتى يُمكنهم تسهيل عملية الولادة، وعادة يتبع ذلك نزيف شديد فيبذلون أقصى جهد لديهم لإنقاذ حياة الأم.

تظل المرأة عادة في مخاضها أياماً قبل أن يُؤتى بها إلى المستشفى، وتضطر إحدى الممرضات أن تضغط على الشريان الأورطي حتى تنتهي ايلين من تقفيل الجرح. وفي بعض الحالات الحرجة والتي يبذلون فيها قصارى جهدهم كانت الأم تنزف حتى الموت.

في إحدى هذه الحالات الحرجة اجتمع سببان معاً للنزيف الحاد عند الأم، كل منهما أصعب من الآخر، حيث انخفضت نسبة الهيموجلوبين بسبب الملاريا وحدث جرح كبير بسبب الولادة، مما جعل الأم المسكينة تنزف حتى الموت و كان الكل يقف عاجزاً ليس في وسعه أن يفعل شيئاً، للأسف لم تتجح كل محاولات إنقاذ الأم.

وبعد مشاهدة ايلين لهذا الحدث لأول مرة ، تركت غرفة العمليات مُسرعة وهي تشهق وتبكي مُعبّرة عن عدم احتمالها الموقف وعدم قدرتها على المواصلة. فجاءت إليها خادمة كبيرة في السن واقتربت منها في عمق حزنها ويأسها وقالت لها بلهجة شديدة كمن يوقظ شخصاً: لماذا أنتِ هنا ؟ أتريدين أن تستعفى وتُكفى عن مساعدة هؤلاء النسوة؟ ، وإن لم تساعديهن أنت فمن يقوم بذلك؟.

ورغم أن كلامها لايلين كان شديداً وموجعاً وقتها لكن ايلين اعتبرت أن ذلك الحديث الصريح والتوبيخ الحكيم نقطة تحول في حياتها وفي خدمتها فلم تعزل العمل ولم تستعف عن تحمل المسؤولية بل واصلت بإصرار ورباطة جأش واستمرت واستمرت و استمرت .

كان لايلين رصيد من الإختبارات الصعبة في الشارقة ، واحدٌ منها على وجه الخصوص كانت أحداثه درامية وكئيبة حقاً.

في بداية خدمتها في المنطقة العربية كانت هناك طيبة مسئولة عن المستشفى قد أُصيبت بحمى التيفود وكانت حالتها حرجة جداً، لم تكن فقط الطيبة الوحيدة المتاحة بالمستشفى كلها بل كانت هي الطيبة الوحيدة في الإقليم بأسره.

في تلك الأيام وردت حالة ولادة إلى المستشفى وكان للمرأة ستة أيام في مخاضها الشديد كانت أسوأ حالة وردت إلى المستشفى ، كان واضحاً أنه إن لم تلق تلك الأم المسكينة عناية خاصة عاجلة فسوف تموت.

أظهرت الفحوصات أن الجنين في وضع خلاف الوضع الذى يسمح بولادته بصورة طبيعية مما يجعل ولادته متعثرة أوقد لا تتم من الأصل.

وكانت المريضة قد استنزفت كل قواها ولم يبق لها سوى الألم المريع وأصبح الأمر يتّطلب إجراء عملية قيصرية ، وهذا الإجراء لا يمكن أن يقوم به سوى الطبيب المؤهل لإجراء العمليات الجراحية.

وطالما ساعدت ايلين تلك الطيبة في عمليات كثيرة لكن لم يخطر ببالها مرة أنها يمكن أن تُجرى العملية بنفسها . فركضت إلى الطيبة المريضة وأخبرتها بالحالة وعن تعذر قيامها بهذه العملية بأى حال . إن مجرد التفكير في هذا الإحتمال كان يُثير الرعب في قلبها .

فقلت لها الطبيبة المريضة بهدوء: إن لم تفعل شيئاً لتساعدني فإن تلك السيدة المسكينة سوف تموت، لكن إن حاولتي، قد تموت لكن من المحتمل أيضاً أن يكتب لها الله عمراً وتعيش.

قالت ايلين : عندما علمت أنها لن تكون معي في غرفة العمليات صار لي الأمر كأنه كابوس مخيف.

لكن بسبب توجيه تلك الطبيبة الكبيرة السن الواضح والمباشر رجعت ايلين إلى غرفة العمليات محاولة أن تساعد تلك الأم المتألّمة البائسة.

كان للطبيبة دليلٌ مكتوبٌ فيه خطوات العملية الجراحية القيصرية بالتفصيل. فقلت ايلين: جعلتُ الكتاب مفتوحاً أمامي وخصصتُ إحدى الممرضات لتقلب الصفحات عندما أطلب منها ذلك.

كنت أقرأ ثم أقطع بالمشروط ثم أقرأ وأفتح بالمشروط ... وهكذا. كنت أفعل ذلك وأنا خائفة ومتوترة جداً وأنا أتبع التعليمات صفحة بصفحة كما في الكتاب ، وبعد أن وصلت إلى المرحلة التي بدت لي وكأنها الأبدية والتي عندها تمت ولادة الطفل حياً، وسليماً تماماً . وبينما كانت الممرضات الأخريات يخدمن المولود السليم ، كنت أنا أستمّر في متابعة التعليمات الخاصة بتقفيّل جرح الأم وأنا أتبع تعليمات الكتاب حتى إنتهت إجراءات العملية القيصرية.

و ها هي الأم والمولود بصحة جيدة وبدون تعقيدات أو مضاعفات. ملأني شعور عميق بالإمتنان للرب وراحة عميقة لا تُوصف.

ها أنا أرى بعيني المولود قد خرج بسلام والأم الصغيرة قد عاشت واستردت صحتها من جديد رغم إنهاكها الشديد والضعف - الغنى عن الوصف - التي كانت فيه.

قلت لها : لكن يا ايلين رغم غياب الثقة التي عند هؤلاء الناس تجاه مناهج الطب الحديثة ووسائله ، ماذا إذا كان تعليقهم وهم يرونك تقومين بالعملية بدلاً من الطبيبة وكيف أنك اتبعتي ما في الكتاب لكي تعرفي ما يجب أن تفعله؟.

ضحكت ايلين وقالت: لأننا نعرف ما يُفكّرون به ، لذا استدعينا واحدة من أفراد العائلة إلى غرفة العمليات كي تشاهد في هدوء وتلاحظ كل شيء نفعله.

فسألتها: إذاً كان هناك واحدة من عائلة المريضة طوال وقت العملية ! فماذا إذاً كان رد الفعل لديها ؟.

أجابت: حالما انتهيت من تقفيّل الجرح رأيتها تركض إلى باقي أفراد العائلة وسمعتها تقول لهم الأخبار السارة أن الأم والطفل في حالة جيدة.

و ما أدهشها أيضاً أنني كإمرأة مثلها كنت أقرأ ما في الكتاب المُرشّد وكانت فخورة أنني عملت طبقاً لما هو مدون في هذا الكتاب العظيم !.

ومن هنا ذاعت شهرة ايلين بين البدو وعرفوها أنها الدكتورة التي تفعل "كل شيء حسب الكتاب" .

إن هذه المرأة الشجاعة بكل المقاييس أعطت لهذا التعبير "تعمل حسب الكتب" معناً مشرقاً ومضيئاً بالتام.

تلقت ايلين مكالمة تليفونية وهى فى الشارقة وكان الإتصال من مستشفى البركة لمرضى السل فى بيت لحم يسألونها الإنضمام إلى فريق العمل هناك. أحد مزايا هذا المكان هو قربيه من القدس حيث يمكن لايلىن أن تدرس فى برنامج لجامعة لندن هناك ، وكان الهدف من ذلك أن تحصل على الدكتوراة فى اللغة العربية. وقد حصلت عليها بالفعل قبيل إنتقالها إلى مدينة مفرق بالأردن سنة ١٩٦٥ وأثبتت براعة فى اتقان اللغة العربية ، لقد أحببتها وأتقنتها لدرجة أن بعض العرب ظنوا أنها لغتها الأصلية.

أذكر موقفاً عندما كنا فى القدس عند مدخل بستان جثمانى وأتى بعض الأطفال العرب وأحاطوا بنا ومدوا أيديهم قائلين (بقشيش بقشيش) وقبل أن نفعل شيئاً تكلمت معهم ايلين باللغة العربية وإنطلقت العبارات بكل إنسيابية وطلاقة عجيبة فإندھش الأولاد لأنهم ظنوا للوهلة الأولى أنها سائحة أجنبية !.

فالتفتت إلى سائق التاكسى - الذى كان رجلاً اجتماعياً بشوشاً ولطيفاً- وقد شاهد معنا هذا الموقف فقلت له: ماذا قالت لهم ؟ فأجاب: أنها تذكرهم بكل المساهمة العربية العظيمة للمعرفة فى العالم وأخبرتهم أنه من العار أن يفعلوا ذلك كيف يتسولون هكذا ويخجلون أجدادهم العظماء ، ثم أضاف وقال: لقد وُلدتُ وتربيتُ فى القدس لكن ايلين تتكلم العربية أفضل منى.

وقتها أدرك الأولاد أنهم حصلوا على ما يكفيهم وانطلقوا فى طريقهم بسرعة وبعد وقت قليل أشار ولد منهم إلى ايلين من على مسافة وقال لبعض الأولاد الآخرين: احذروا من السيدة الطويلة ولا تسمعوا لمحاضراتها ، إنها تبدو لكم وكأنها أمريكية لكنها عربية أصلاً ويمكن أن تُقطعكم بلسانها .

لم تكن ايلين أبداً تهديداً لأحد لكن على العكس قد كانت موضع إعجاب الناس من العرب . عندما كنا نعيش فى هيوستن ، تكساس عام ١٩٩٢ كنا نساكن فى عمارة كبيرة وكان هناك عدد من الشبان العرب يعملون فى أمن العمارة على البوابة العمومية ولما تكلمت ايلين معهم إندھشوا من مستواها فى اللغة العربية التى تكلمت بها بشكل سليم ودقيق فلم يُصدّقون أنفسهم وقالوا: إنها تتكلم كما لو كانت اللغة العربية هى لغتها الأصلية.

وعندما أظهرت لهم كرم الضيافة العربية عرضوا عليها أن تزورهم فى بيوتهم لتناول وجبة غداء معهم وهناك التقت بباقي أفراد عائلاتهم.

والآن تقر ايلين بأنها تُفكر باللغة العربية وتُترجم أفكارها إلى اللغة الإنجليزية (كان لدى فضول أن أعرف إن كانت تحلم باللغة العربية أم لا والجواب "نعم" !)

طالما أذهلتني طلاقتها في الحديث عندما تكون في الولايات المتحدة تتحول إلى الإنجليزية بإنسيابية ولا يخلو حديثها من إحدى التعبيرات العربية التي تخرج وسط الكلام بشكل تلقائي دون قصد.

وأحياناً لا تجد تعبيراً ملائماً بالإنجليزية فتذكر نظيره بالعربية إذ ترى أنه أكثر ثراءً وتعبيراً ، كما أعجبت بتأقلمها مع الثقافات الأخرى لقد أظهرت ارتياحاً وانسجاماً وهي تعيش في الوسط البدوي كما تشعر تماماً في الثقافة الغربية.

كانت ايلين تشعر براحة وهي ترتدي العباءة البدوية تماماً كما ترتدى الملابس الغربية الأنيقة.

لقد وجدت في قلبها حباً وتقديراً عميقاً للمرضى من البدو خلال الثمانية أعوام التي خدمت فيها بمستشفى البركة في بيت لحم ، ووصفت البدو أنهم أعزاء ، فخورون بأصولهم ومعتمدون على أنفسهم – هم بالفعل أبناء البادية.

وأيضاً لديهم روح مرح وخفة ظل مبهجة مع أنهم مرات يمزحون حتى على أنفسهم ، وبينما رأيت استقامة في تعاملاتهم في كثير من الجوانب لكن أحياناً يكذبون بطريقة ساحرة بدون خجل من ذلك ، ومن الناحية الأخلاقية فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية فهم محافظون جداً ويتبعون في هذا الأمر معتقداتهم البدوية بحرص شديد.

أتذكر أحد المواقف الطريفة التي قابلتني وأنا أشتري بعض الأشياء من أحد شوارع العاصمة الأردنية عمان وعندما خرجت من المحل لم أكن أنظر أمامي فاصطدمت بشاب أردني وسيم و كان قد خرج لتوه من أحد المحلات وعندما لمسني بدون قصد انتفض في الحال ورفع يديه في الهواء ورجع للخلف وأخذ يردد إعتذاره.

فوقفت في ذهول وبينما أحاول استدراك ما حدث شرحت ايلين لي الموقف كيف أنه طبقاً لثقافته لا يحق للرجل أن يلمس امرأة أخرى غير زوجته وأمه وأخته فتعجبت من ضمير الشاب اليقظ وولائه لمبادئه وعلمت وقتها لماذا أحببت ايلين "أبناء الصحراء".

قالت لي مرة أنه في بداية خدمتها ، أن واحداً من البدو الذين قبلوا المسيح مخلصاً وربما قد ألقى به في السجن بسبب إيمانه الجديد ، لقد ضربوه وهددوه وحلقوا نصف شعره ونصف شاربته لكي ينكر المسيح. مع العلم أن حلق نصف الشارب ونصف الشعر صورة من صور الإذلال الشديد في ثقافتهم ، ورغم ذلك كان صامداً متمسكاً ، وعندما زارته ايلين في السجن قال لها (لقد تعبت جداً ولم أعد أحتمل) فبإمكانه أن يخرج حراً لوأنه أنكر إيمانه بالمسيح فنظرت إليه والدموع تملأ عينيها وقالت له "تذكر أنه مات من أجلك" ، فاحتمل عذابات أكثر ألماً وظل متمسكاً بالمسيح حتى أطلق سراحه أخيراً.

أمام هذه الاختبارات لا نملك سوى التعجب والتساؤل . كم واحد منا يقف تلك الوقفة من أجل الرب يسوع المسيح ؟ أجد عزاء في القول "الله لم يعطنا النعمة لكي نملاً بها أذهاننا وتصوراتنا بل من أجل التجارب الحقيقية التي تحل بنا".

وبالأحرزى نجد تشجيعاً عظيماً فى كلمات ربنا يسوع المسيح "ومتى قدّموكم إلى المجامع و الرؤساء والسلّاطين فلا تهتموا كيف أو بما تحتجون أو بما تقولون" لو ١٢: ١١ .

بالإضافة إلى إتقانها للغة العربية خلال سنوات خدمتها فى مستشفى البركة فى بيت لحم ، فقد ربّط الرب أن تتعرف على شخصية هامة جداً وثمينة فى حياة ايلين وهى الدكتورة إيلانور سولتاو (طبيبة الأمراض الصدرية) من فريق أطباء المستشفى. وإيليانور ابنة خادم وقسيس وُلد فى كوريا حيث خدم أبويها هناك كينبوعين ثم عادت إلى الولايات المتحدة بعد غزو اليابان للصين فى الحرب العالمية الثانية . أبوها د.سلتاو أصبح راعياً محبوباً للكنيسة الإنجيلية بمفيس تنيسى بالولايات المتحدة. كبرت إيلانور فى كوريا مع صديقة عمرها روث بيل ابنة د. نيلسون بيل وزوجته اللذان كانا ينبوعين فى الصين .

التقيتا لأول مرة فى مدرسة لأبناء العاملين فى الشرق الأقصى – والتي تقع فى كوريا . التحقت السيدتان روث وإيلانور بعد ذلك بكلية ويتون حيث تزوجت روث ببيلي جراهام والتحقت إيلانور بمدرسة طبية.

عندما وجدت ايلين و أيضاً إيلانور إختلافات لاهوتية بينهما وبين إدارة مستشفى البركة وفى ذات الوقت كان أغلبية البدو يسكنون فى الجانب الشرقى من نهر الأردن فدفعهما كل ذلك أن تتوجها حيث الشعب الذى تثقلتا بأن تخدمنا بينه . ولهذا ففى عام ١٩٦٥ قررنا أن تنتقلا وتبدءا عملاً جديداً هناك. يالها من مجازفة كبيرة ! ياله من تحدٍ ! يالها من شجاعة !. ففكر معى فى هذا الأمر.. سيدتان تبدءان وحدهما عملاً جديداً وسط بيئة مختلفة ومعادية لهما فى الجنس والدين .

لكن معجزة الرحمة التى يصنعها الرب بهما قد هيأت المستشفى ذات الستين سريراً لمرضى السل وقد بدأت بالعمل عام ١٩٧٣ "هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع" (مت ٢٦: ١٩)

عندما كنتُ أفكرُ فى هذا المشروع الصعب والكبير سألت ايلين: كيف ومتى بدأت الفكرة ؟ قالت : بعدما اختلفنا فى الرأى مع إدارة مستشفى البركة رجعت مع إيلانور إلى الولايات المتحدة ، أردنا أن نشارك الحلم والرؤيا التى وضعها الرب فى قلوبنا مع أصدقائنا ومن يدعمنا وشرحنا لهم خدمة الشفاء بين قبائل البدو وبسذاجة إعتقدنا أنهم سوف يُرحّبون على الفور بالفكرة ويكونون سعداء ومتحمسين للرؤية الجديدة.

لكن وجدنا فى الحال عكس ما توقعناه إن فكرة إمرأتين قررنا الذهاب للعالم العربى ليعملا شيئاً عادةً ما يفعله الرجال لم تحظ بقبول بل خاب إنتظارنا وفوجئنا بخلاف ما رجونا منهم وتستمر ايلين وتقول: يوماً ما ونحن نزور صديقاً طيباً لنا "روى جوستافسون" سألنا : ماذا تتويان أن تفعلنا؟

وبأسلوب دفاعي أخبرته بكل شيء ، فأصغى لنا بانتباه شديد وشغف ثم أخذ كتابه المقدس وقرأ لنا من سفر الجامعة ١١ : ٤-٦ "من يرصدُ الريح لا يزرع ومن يراقب السحب لا يحصد كما أنك لست تعلم طريق الريح ولا كيف العظام في بطن الحبل كذلك لا تعلم أعمال الله الذي يصنع الجميع في الصباح ازرع زرعك وفي المساء لا تُرخ يدك لأنك لا تعلم أيهما ينمو هذا أو ذاك أو أن يكون كلاهما جيدين سواء". ثم أغلق كتابه وقال لنا بابتسامة رقيقة : إذا أنتما مقتنعان أن هذا ما يطلبه الرب منكما أن تفعله فلماذا أنتما جالستان هنا في غرفة معيشتي ؟ هيا قوما اذهبا واعملا .

وهكذا كان الرب يؤكد لنا قصده مستخدماً بعض الأحباء المشجعين وبعضهم من الكنيسة المحلية لإليانور في ممفيس.

قررنا أن تعودا إلى الأردن عام ١٩٦٥. يالهما من بطلتين مثابرتين ، كل منهما أصيبت بالسل مرتين وبعد أن استمرت ايلين لمدة عامين للعلاج (أزالت رئة) ثم إنتحقت إليانور بمدرسة طبية لمدة عامين.

أى شيء عادتا لكى تبدأ عمله ؟ مصحة للسل ؟! يا لها من دعوة ، يالها من طاعة ، ويالها من رؤية.

وبعد وصولهما إلى مفرق بالأردن ، أول شيء احتاجتا إليه بالطبع هو مبنى مناسب يصلح أن يكون مستشفى . لم يكن معهما في ذلك الوقت سوى خمسون دولاراً وهذا كان يُشكّل عائقاً كبيراً لهما.

ووجدنا أخيراً مكاناً ظننا أنه يصلح لهذا الغرض ، كان هو المبنى الوحيد المبنى بحجارة في كل قرية مفرق لكن المالك طلب ١٠٠٠ دولاراً سنوياً على أن يُدفع إيجار العام الأول مقدماً.

بما أنه عمل الله الذي تتوقا أن تنجزاه، اتجهتا إلى الرب تطلبان منه العون.

وفي الحال أجاب الرب بأول حل من حلول كثيرة تلت ذلك.

في الوقت المناسب وصل شيك بالبريد وهو ادخار قديم حيث كانت إليانور تعمل في المجال الطبي في ممفيس- تينيسى من سنوات مضت ، أرادت الشركة أن تعرف كيف تستثمر هذه المبالغ وعندما أرسلت ولم تجد رداً من إليانور ، أغلقت حسابها وأرسلت الشيك بكامل المبلغ بواسطة البريد.

وماذا يا ترى فيه ؟ وما هي قيمة الشيك ؟ إنه ١١٠٠ دولاراً .ها قد وصلنا للمعجزة الأولى. هذا بالضبط كان يُمثل لهما مصادفة عجيبة ومُشجّعة من الرّب كنا نتوق إليها وننتظر إتمام وعده "فيملاً إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع" (فى ٤: ١٩).

بعد ستة أشهر تم افتتاح المبنى كمستشفى واستغرق الأمر ستة أشهر لتنظيف المكان وتهيته تجهيزه بالمعدات الأولية التى يتحتم وجودها والتي تبرع بها بعض الأطباء من ممفيس

بالولايات المتحدة ، وبدأنا في استقبال المرضى حالما توفرت للمستشفى الإمكانيات الأساسية .

في البداية كان تحدياً يومياً أن يقنعوا البدو أن يكفوا عن الطرق البدائية والخرافات التي كانت سائدة في طرق علاجهم ويشجعوهم على قبول الطرق الطبية الحديثة والتي يؤكد المتخصصون أنها الطريقة السليمة التي تساعد على الشفاء.

ومن أمثلة الأشياء التي واجهناها مع هذه القبائل على سبيل المثال: عندما يخطون البطن بخيط ثم يحرقون النسيج الخارجي بسيخ ساخن لطرد المرض من البطن أو يلبسون أحذية حتى يطردوا الأرواح الشريرة المسببة للمرض.

شيئاً فشيئاً اكتسب الأطباء ثقة واحترام هؤلاء البدو عندما رأوا أن الشفاء يتم من خلال تلك الطرق الحديثة والغريبة عليهم. لقد اختبروا نفعها وتأثيرها المرجو .

بواسطة هاتين السيدتين المحببتين نما العمل وزاد عدد المرضى بقدر ما تنتشر الأخبار عنهما من خلال "برقيات الصحراء" وذاع خبرهما بأن عندهما شفاءً.

ونظراً لأنهما تُصلّيان مع المرضى وتشهدان لهم بالأخبار السارة صارت المستشفى معروفة في الصحراء بأنها "مستشفى الوعظ" .

في إحدى المرات علمت مريضة من أفراد العائلة المالكة بالسعودية بخدماتهما الطبية المدهشة فقررت أن تأتي إلى مستشفى "الوعظ" في شمال الأردن وبعد إقامتها عدة أشهر عادت إلى وطنها وقد شفيت من دائها تماماً.

استمرت في هذا المبنى الضيق الذي لا تتجاوز مساحته ٦٤٠ متر مربع مدة ثمانية أعوام رغم أن عدد الأسرة يكفي ل ١٦ مريض مقيم فقط وباقي المرضى يُعالجون في العيادة وينتظرون حتى يتاح لهم سرير في المستشفى.

وفي منتصف هذه المدة أي بعد مرور أربعة سنوات من العمل في هذا المبنى الحجري الضيق بدأنا نشعران بالحاجة الملحة لمكان أوسع بإمكانات أكثر.

وطبقاً لطريقتهما المألوفة في معالجة الأزمات عرضنا الأمر على الأب السماوي وأخبرناه عن احتياجهما لدعم مالى كبير.

وشاركنا رؤيتهما هذه مع من يدعمهما وكنا (أنا و زوجي) نعرف هذا الأمر لأن زوجي كان قائداً لعدة رحلات في منطقة الشرق الأوسط خلال الاعوام من ١٩٦٨ م إلى ١٩٧٩ م. وفي كل مرة يلتقى الفوج مع ايلين كانت دائماً تشاركهم الرؤية وتجعلهم يفكرون في خدمتهما بصورة عميقة.

وكان الأمر يتطلب إعلاناً واضحاً عن الاحتياجات المطلوبة حتى يتم توفير وتقديم مساعدات ومساهمات مناسبة من المجموعة الزائرة ويتطلب الأمر أن يُعرض ذلك من جانب ايلين وإليانور فأخبرتاني أنه في أول الأمر أردنا أن نتأكد من مباركة الرب ومصادقته على هذه الخدمة لذلك التجأتا للرب وحده فقط فيما يتعلق بالاحتياجات المالية.

وهذا يُشبه إلى حد ما إرسالية الرب يسوع للتلاميذ في المرة الأولى حيث قال لهم "لا تحملوا كيساً ولا مزوداً ولا أحذية ولا تسلموا على أحد في الطريق" (لو ١٠: ٤).

كان يجب أن يتعلموا (التلاميذ) أن يتكلموا على الرب فى كل شئ. وبعد ذلك سأل الرب تلاميذه بعد أن أرسلهم للخدمة "عندما أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية هل أعوزكم شيئاً فقالوا لا ، فقال لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ومن ليس له فليبيع ثوبه ويشتري سيفاً" (لو ٢٢ : ٣٥-٣٦). هنا يخبرهم أن يدبروا احتياجاتهم ، هكذا عندما تأكدنا أن الله رأى اتكالهما الكامل عليه وثقتهما فيه وحده من أجل سداد جميع الاحتياجات، الآن صارتا أكثر راحةً أن تشا ركا الآخرين بإحتياجاتهما المحددة. واثقتين أن الرب هو المُحرِّك وهو المصدر لكل العطايا. لم ألتق في حياتي بأحدٍ عاش هذه الأقوال التى وردت فى (مز ١٢٧ - ١) : "إن لم يبين الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون" مثل ايلين و اليانور.

رغم أن الرب دبر بعض الأموال لكن ظلت هناك أسئلة مُلحة تطرح نفسها :من القادر على تمويل ذلك المشروع الكبير؟، كيف تُصمَّم المستشفى؟ كيف يتم توفير المبلغ اللازم لأتباع مهندس التصميمات ؟ وهل يتوافق تصميمها مع ثقافة البدو الذين اعتادوا أن يعيشوا فى خيام فقط ؟ كيف تضمن شعورهم بالراحة والأمان داخل أسوار المستشفى وتعاملهم مع أشياء ليس لهم خبرة أو عهد بها من قبل ؟ وهكذا أسئلة أسئلة أسئلة. نعم لكن دُع الله يجيب بطرقه العجيبة وسنرى بأعيننا ما تفعله يداه.

"ليس لدى شيء أقدمه"

عند الحديث عن بداية مستشفى النور ، وجب الإشارة إلى قلب القصة وهو رجل يُدعى "لستر جيتس" وهو مزارعٌ ناجحٌ من ولاية أوهايو. كان لستر جيتس قد فقد زوجته المحبوبة حديثاً وأخذهُ أولاده في رحلة للشرق الأوسط ليساعده على أن يخرج من محنته العصبية وحزنه الشديد. وأثناء تلك الرحلة سمع إيلين تتكلم في القدس عام ١٩٦٥ وتشاركهم بأخبار الخدمة فأعجب كثيراً بما يقومون به ، ولما عاد إلى أمريكا كتب خطاباً إلى إيلين وقال لها : "ليس لدى الكثير يمكن أن أفعله لكنني متأكد أنني يمكن أن أساهم في إصلاح ذلك المبنى المُستأجر ، ربما أبنى دواليب أفضل مما لديكم".

عرض عليهما أن يأتي إليهما لمدة ستة أشهر ليعمل كمتطوع معهما دون أن يكون عبئاً على أحد مُتكفلاً بكل نفقاته.

وسرعان ما اكتشفنا بأن لديه الكثير الذي يمكن أن يفعله- هذا الخادم المتواضع- للمسيح والذي أنجز إنجازات عظيمة في البناء والصيانة دون أن يحصل على التدريب العلمي الذي يؤهله للعمل في هذه المجالات.

لم يصنع فقط الحجارة القديمة بمهارة فائقة لكن استطاع أيضاً أن يقوم بالبناء مستخدماً عمالة وطنية غير مُدربة ، لقد خطط ونظم وأدار وحفّز هؤلاء العمال بكفاءة تفوق الوصف مع أنه لم يعرف من اللغة العربية سوى القليل في الوقت الذي لا يعرف فيه بعض العمال إ قليلاً من الإنجليزية والبعض الآخر لا يعرف على الإطلاق.

والمعدات الأولية المُستخدمة في البناء هي خلاط أسمنت واحد وقد تبرّع هو به بالإضافة إلى عربة يد أحضرها معه من الولايات المتحدة عندما عاد في عام ١٩٦٦ أما الستة أشهر التي وعد بأن يقضيها معهما فقد طالت وامتدت لاثنتين وعشرين عاماً وهذه هي معجزة أخرى.

خلال كل هذه الفترة كان لستر مُتكفلاً بنفقات نفسه دون أن يتلقَ دعماً من أحد وكان قد زرع مئات من الأشجار في تلك الأرض بعضها أحضرها معه مع متاعه عندما عاد من زيارة قصيرة لعائلته في أوهايو.

وكانت بعض هذه الأشجار من الخوخ بنوعيه- ذى القشرة الناعمة والنوع الآخر العادى- وكان ثمر هذه الأشجار من أجود أثمار الخوخ في الأردن على الإطلاق بشهادة إيلين.

وأدخل أيضاً (الرى الآلى) للأردن قبل أن يستخدمه أى أحد آخر بزمان طويل. وهذه الطريقة من الرى إقتصادية وتوفر كميه ضخمة من المياه الثمينة نظراً لتجنب التبخير الزائد. وكى يُنفذ هذا المشروع كان يلزم أن يأتى بخراطيم كثيرة في كل مرة يعود فيها

لوطنه . كان رجلاً يُحسن العطاء ويجد سروراً عظيماً في أن يُنفق أمواله من أجل إتساع عمل الله سواء في مفرق أو أماكن أخرى من العالم. لكن دعونا نعود بالزمن لأول مرة وصل فيها إلى قرية مفرق ونتناول بعض النقاط المؤثرة والمثيرة في هذه البدايات.

كان قد مضى وقتاً ليس بقليل حين لاحظ لستر أن ذلك العقار المستأجر ضيقٌ جداً ، وهو ما لم تدركه ايلين في البداية وظل يقول: "لماذا لا تبنون ؟".

لكن هذا بالطبع يأخذنا إلى الأسئلة الأسئلة الأسئلة
من قادر على تمويل ذلك المشروع الكبير ؟ كيف نحصل على الأرض ؟ من يخطط ويُصمم المستشفى ؟ .

في تلك الأيام لم يكن مسموحاً للأجانب أن يمتلكوا أرضاً لكن كانت هناك مساعي من خلال أصدقاء مختلفين لهما في الدوائر الحكومية والذين قدّموا بدورهم طلباً إلى مجلس الوزراء فتمكنوا أخيراً من أن يحصلوا على موافقة بشراء أرض وتصريحاً بإقامة مستشفى على الأراضي الأردنية (رغم أن الحكومة تعرف أن هؤلاء العاملين من ديانة مختلفة) وهذا غير مسموح به في البلاد في أغلب الأحيان. إنها معجزة جديدة.

كان لإليانور صديقٌ قديمٌ من أيام دراستها بكلية ويتون بأمريكا اسمه "بوب فان كامبن" ، الذي أرسل لها في ذلك الوقت بالضبط شيكاً قيمته ١٠٠٠ دولاراً مُرفق معه خطاباً يقول فيه: أنا رجل أعمال وأظن أن العمل الذي تقومون به لا يغطي نفقة إيجار العقار فلماذا لا تأخذون هذا المبلغ من المال وتشترون قطعة أرض ؟ وكان ذلك تأكيداً مُشجعاً من التّرب كي تبدأ بالفعل في البحث عن قطعة أرض تصلح لإقامة مستشفى عليها.

وبدا لستر ذلك الرجل مُتعدد المواهب بحته الدعوب عن موقع مناسب خارج قرية مفرق وعن المساحة التي يشعر أن التّرب يريد أن يهبها لهم.

وكونه مزارعاً ناجحاً أفاده ذلك في أن يضع في حساباته بعض الإعتبارات الهامة عند إختياره للأرض التي سيشترونها وعلى رأس قائمة هذه الإعتبارات هو توفر المياه رغم ندرة مصادر المياه في صحراء مفرق.

لكن كيف تعرف ما هو تحت رمال الصحراء ؟ من يدر أين يوجد الماء ؟ كان التنقيب عن الماء كمن يبحث عن الذهب.

أخذ لستر شجرة جافة قد سقط ورقها وأغصانها وكانت على شكل (Y) وأخذ يستخدم هذا الجهاز البدائي مُمسكاً إياه بحذر ودقة وهو يغرسه في تربة الصحراء ويمتحن بها الأرض ذهاباً وإياباً.

وبينما كان يضغط بتلك العصا "التي يُطلق عليها أحيانا العصا السحرية" عرفت العصا طريقها في رمال الصحراء فوضع علامة في تلك البقعة من الأرض ثم واصل بحثه ويعود مرة أخرى لتلك البقعة ويمتحنها من زوايا مختلفة ويغرس العصا في ذات المكان الذي

حدده من قبل وبكل بساطة وتلقائية وبثقة أيضاً أعلن لستر (فى هذا المكان سوف نحفر ونجد الماء) وبرغم أن الخبراء قد أكدوا لهم بأنه لا يوجد ماء فى هذه القطعة لكن أعلن لستر أيضاً بأن تلك المساحة من الأرض ستكون أفضل تربة يقام عليها المستشفى لأنه شعر وهو يمتحن سطح التربة بأنه يوجد طبقة صخرية تحت الرمال وقد تَبَيَّنَتْ صحة توقعاته ، لقد وجدوا الماء فى ذات المكان الذى أشار إليه.

وُبُنِيَتْ المستشفى على أرض ذات أساسات صخرية تضمن ثبات البناء، فضلاً عن جمال المنظر وجودة التربة وصلاحياتها لإنجاز خططه الزراعية. والأشجار الغزيرة التى تشبه واحة خضراء وسط الصحراء تُحيط بالمستشفى انما هى تأكيدٌ واضحٌ على صواب رأيه وصحة توقعاته.

كانت للستر قناعة كاملة بأن اختياره ورأيه صائب من البداية لدرجة أنه عاد لأمريكا وباع بيته لكى يغطى نفقة التنقيب عن الماء. وبهذا الكنز الدفين تمكنوا من رى أشجار الفاكهة والحدائق والبساتين التى زُرعت أثناء تشييد المستشفى.

هل تصدق أنه بمبلغ ٢٠٠٠ دولار فقط تمكنوا من شراء الأرض ذات المساحة ٢٥ فدان فى الصحراء ليُقام عليها المستشفى التى حلموا ببنائها.

لقد تَعَطَّلَ العمل بسبب كثرة الحروب التى دارت فى ذلك الوقت: حرب ١٩٦٧ ثم الحرب الأهلية المأساوية عام ١٩٧٠ ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣ . كل هذه الحروب تسببت فى إعاقة البناء لعدم توفر المواد اللازمة لكن هناك سبباً آخر ويُعد السبب الرئيسى وهو أن السيد لستر قد ضُربَ بقسوة وطُرد من البلاد.

وهذه الأزمة تفجّرت بسبب شكاية "وشاية" كاذبة من الجيش العراقى (العراقيون حلوا فى مفرق بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة) وبعد خمسة أشهر من ترحيل لستر تم السماح له بالعودة مرة أخرى وخلال تلك الفترة ساد الإحباط وكثيرون نصحوهم ألا يستكملوا العمل بسبب الظروف الغير مستقرة فى تلك المنطقة الملتهبة من الشرق الأوسط وأى مشروع بناء فى منطقة كهذه غير مُرَحَّب به ، لكن بقدر ما أعطاهم الله قدرة للعمل وطاقة للمواصلة استمروا فى البناء وعندما يَتَعَذَّرُ البناء يقوم لستر بزراعة الأشجار ومع الوقت إنتهى العمل وصارت المستشفى جاهزة للاستخدام.

فى عام ١٩٧٣ كانت لديهم بساتين من ١٠٠٠ شجرة زيتون مع أشجار فاكهة أخرى وقد منحتهم وزارة الزراعة ثمانية آلاف شجرة صنوبر. نظراً لأن المستشفى تقع فى منطقة رملية فى الصحراء فقد فضّلوا استخدام أشجار الصنوبر كساتر وسور يُسَيِّجُ الأرض ويحجز الرياح التى تحمل تراب الصحراء.

كان لستر جتس رجلاً مدهشاً فى إدارة الأموال ويمكنه أن يفعل الكثير بدولار واحد. مرة أخرى نقول رغم أنه لم يكن مقاولاً محترفاً لكنه أثبت أنه مقاولٌ باهر موهوب ، لقد بنى تلك المستشفى ذات الستين سريراً بمبلغ سبعين ألف دولاراً.

مصنوعه من حجارة محلية مقطوعة باليد - والتي تُعتبر في جمالها وروعيتها من أفضل الأبنية في تلك الثقافة آنذاك.

يحيط بالمستشفى مساحات مفتوحة حتى يشعر المرضى من البدو (الذين اعتادوا المعيشة في الخيام) بالراحة بدلاً من أن يضجروا من المكان المغلق. وماذا عن الأسئلة المتعلقة بتصميم المستشفى ؟ حسناً ، لقد أكرمهم الله بشباب من كاليفورنيا اسمه (ريموند لوبى) وكان خريجاً حديثاً من الكلية وكان مطلوباً منه أن يُعد تصميماً لمستشفى وهل صمم بالفعل ؟ هل أتقن في تصميمه مراعيًا ثقافتهم ؟.

لقد بذل ريموند قصارى جهده في تعليم نفسه الذوق العربى وتقاليد البدو. فقد كتب لعدة مهندسين يعملون في ذات المنطقة وعلم منهم الكثير عن المفاهيم المتعلقة بثقافة البدو الذين ستقام المستشفى على أرضهم حتى تكون مقبولة لديهم. بالإضافة إلى مساهمة ايلين بأرائها إذ جعلته يضع في اعتباره مخاوف البدو من المساحات المغلقة التي لم يعتادوا عليها.

بالنسبة للأغلبية كانت زيارة المستشفى هي المكان الوحيد الذى فيه يقضون ليلتهم في مكان غير الخيام. من أجل هذا السبب كان تصميم لوبى للأسوار الخارجية لا يخلو من منافذ ونوافذ متسعة للغرف لئتمكن المرضى من رؤية ما فى الخارج حتى لو لم يتمكنوا من الوجود فى الخارج.

كان ريموند لوبى سعيداً من أجل تلك المغامرة الجديدة والتي فيها قَدَّم بسخاء خدماته وخطته المُفصَّلة التي قام لستر بتنفيذها بكل دقة.

لقد بُنيت المستشفى بمعدل بطئ. كان لستر سعيداً بسبب تطوع بعض الشباب من أمريكا للعمل وإن كان قليل منهم ليس لديهم خبرة بأعمال البناء . كان معظمهم من طلبة الجامعة وقد جاءوا ليقضوا فترة العطلة الصيفية والبعض ظل لفترة أطول . لقد قبلوا أن يقضوا أجازاتهم تحت أشعة الشمس الحارقة ووسط الذباب وتراب الصحراء الأشياء التي كانت تمثل جزءاً من حياة الصحراء.

قالت ايلين: كانوا عوناً عظيماً لنا وملأوا الجو حيوية وشباباً حتى بالرغم من أوقات الإحباط أحياناً لكن رائع أن نرى الله وهو يعمل فى حياة الكثيرين من هؤلاء الشباب ، بعضهم الآن جزء من مجلس إدارة مؤسسة مفرق الصحبة.

منهم ديفيد سكولتر وسالى جلمان دوف و فرانكلين جراهام الذى هو الآن رئيس مجلس إدارة المستشفى ورئيس مؤسسة "محفظة السامرى" الخيرية Samaritan purse والمسئول المرتقب لمؤسسة بيلى جراهام.

اتجه بعضهم إلى خدمة مسيحية داخل أمريكا مثل بيل الذى صار راعياً لإحدى الكنائس الكبرى فى أمريكا.

أصبح بيل كريستوبل خادماً فى غينيا الجديدة وأصبح مارك تايلور رئيس لدار تنديل للنشر وهى إحدى أكبر دور النشر المسيحية فى العالم.

لم يفت ايلين أن تذكر أن العبرة ليست في تأثيرهم على هؤلاء الشباب بل بالأحرى ما كان يعملهم الله في حياة هؤلاء الخدام الذين تطوعوا لخدمته. وحيث أنه لم يكن هناك أى صورة من صور الترفيه أو التسلية في مفرق فلم يكن هناك ما يشتهم لذلك كرسوا كل وقتهم وطاقاتهم في العمل والإصغاء للرب والتدريب على طاعته.

وقد استخدمهم لستر في العمل بالدرجة التي لم يعد لهم طاقة لفعل أى شئ آخر في نهاية اليوم سوى أن يلقوا بأجسادهم المتعبة على أسرّتهم لينالوا قسطاً من الراحة. ثم أضافت ايلين: وهكذا إبتهجنا ونحن نرى كيف باركهم الرب وإستخدمهم. وبسبب غياب التمويل الكافي كانت مساهمتهم في العمل ثمينة جداً.

فيما يتعلق بجمع المال – قالت ايلين : في البداية كما سبق الذكر كانت إحدى مصادر الدعم بصورة غير منتظمة هي الرحلات السياحية التي كان ينظمها روى جوستافسون وآخرون تحت رعاية مؤسسة بيلي جراهام، ثم نأتى أنا وإليانور نتكلم إلى الفوج الزائر، كان روى يشير بالتحديد إلى الاحتياجات الملحة في المستشفى آنذاك، ثم يتطوع أحد أو بعض الأفراد بأن يغطى هذه الاحتياجات بمساهمة مالية" أيضاً ساهمت مؤسسة بيلي جراهام مساهمة كبيرة في العمل و يأتى لستر جيتس في المرتبة التالية بعدهم.

لما عاد فرانكلين جراهام وديفيد سكولتر من رحلتهم الصيفية الأولى من الأردن إلى الولايات المتحدة في أواخر الستينات، ذهبوا وجمعوا مبلغاً كبيراً من المال. وجمعت دار تندل للنشر مبلغاً مماثلاً ولعل السبب الرئيسى وراء ذلك أن مارك تيلور نفسه كان معهم في ذات الصيف.

وعند عودة سالى جيلمان دوف إلى الولايات المتحدة جمعت مبلغاً من المال يكفى لشراء سيارة فولكس ستيشن حمراء وارسلتها لنا. ولم يزلوا يحصلون على دعم من هؤلاء الذين سمعوا عن المستشفى من خلال تلك الرحلات، هذا بالإضافة إلى العطايا الشخصية التي خرجت من قلوب سمحة وبتضحية كبيرة.

وبعد عدة سنوات شهدت هذه الخدمة ثمراً عظيماً من الشفاء للجسد والنفوس ، وأدرجت بعض الكنائس والهيئات تلك المستشفى ضمن حسابات ميزانيتهم السنوية.

في السنوات الأخيرة عندما صار العمل أكثر تنظيماً تم إنتخاب مجلس للإدارة حيث تولى رئاسته فرانكلين جراهام ومع مسؤوليته في خدمة (محفظة السامرى) لكنه كان متاحاً أيضاً لإدارة مشتريات المستشفى بالإضافة إلى معاونته الملموسة في النواحي المالية.

وإستمر الله في حث القلوب بطريقة عجيبة سواء لأفراد أو كنائس بالرغم من أن المستشفى كانت تواجه أحياناً أزماً مالية لكن كان الله يسدد الاحتياج المطلوب في الوقت المعين ويُرسل تقدمات غير متوقعة لكى يضبط الحسابات.

من المهم أنهم لم يقوموا ببناء أو توسع يجعلهم يلجأون للإستدانة أو الإقتراض بل كان مبدأ القروض مستبعداً تماماً من أذهانهم .
خلال خمسة عشر عام لم يتم تجهيز بيت الممرضات إلى أن تم استكمال بناء المستشفى برغم أنه يمثل نصف حجم المستشفى لكنه يُكَلَّف ضعف تكلفة الأبنية.
الآن تقدم المستشفى خدماتها لمئة وخمسين ألفاً من البدو الرحالة و لعشرين ألفاً من مواطني "مفرق" على مدار ثلاثين عاماً.

خدم لستر جيتس معهم ٢٢ سنة بكل تواضع وتضحية وبلا رغبة في صيت ذائع أو مديح من الناس، لم يسع لأجله ولم ينتظره ، عانى لستر جيتس من أزمة قلبية أثناء الكريسماس وهو يزور عائلته وأجريت له عملية قلب مفتوح ثم عاد للأردن بعدها بثلاثة أشهر.
وقالت ايلين: اتصلت ابنته جيري من أوهايو وطلبت منا أن يقوم لستر بأعماله بهدوء وببطء قليلاً عن المعتاد نظراً لحالته الصحية.
وتكلمت إليانور معه بحزم بصفتها طبيبة ونصحته أن يلزم الراحة بعد الغذاء وأن ينتهي من عمله مبكراً بعد الظهر ، كان لستر يبتسم دون تعليق.
في الصباح التالي عندما قامت بتناول الإفطار في الساعة السادسة والنصف صباحاً وجدته يحرق بالجارار وظل يعمل حتى غابت الشمس فأجبر أن ينتهي من عمله لأنه لم يعد يرى بعد الغروب. كثيراً ما نصحناه وقلقنا عليه.
كلما عدت بذاكرتي إلى الماضي وتذكرت حين جاء لستر إلى مفرق كان عمرة ٥٦ عاماً وعاش في بيت مصنوع من الطين وفي إحدى الأيام المُمطرة كان المطر غزيراً وجد نفسه في الصباح التالي نائماً في العراء لأن جدار البيت الطيني قد إنهار بسبب المطر الشديد ورغم ذلك لم يشك أبداً.
الذين عملوا معه من العمال من ثلاثين عاماً مضت، لم يزلوا يستوقفون ايلين في الشارع ويعبرون عن تقديرهم واحترامهم لهذا الرجل.
أضافت ايلين :إنه رجل سخّي ومتواضعٌ وله قلب الخادم ومكافأته عظيمة في السماء.

ترك الأردن عام ١٩٨٨ وعاد إلى منزل ابنته بسبب ظروفه الصحية ورقد في نوفمبر من نفس العام.

يالها من سيرة عطرة ومثالاً لما يُمكن أن يعملهُ الله بأى شخص يسعى مُخلصاً أن يفعل مرضاته ، لم يعبأ مطلقاً بنفسه ولم يحتسب لشيء أو لمن يُحسب الفضل ويعود المدح ، لقد عاش سائحاً وجعل نفسه مُتاحاً للرب ليفعل ما قصد الله أن يعمل به، لم يكن يعلم كم هي عظيمة مقاصد الله لكن كان يستودع مستقبله في يد الرب بكل طاعة.

ألا تَرَوْن معى عظمة التكريس من رجل عندما عرّف نفسه لايلىن قال : "ليس لدى الكثير كى أقدمه"!!

الفصل الرابع

عطايا الله من الناس لأجل الخدمة

بالإضافة إلى لستر جيتس أقام الله أناساً من الأردنيين ساهموا في الخدمة مع ايلين و إيلانور. في البداية كان هناك فقط (ن) وزوجته (م) ، كان (ن) ابن كاهن من "الجريك" من بيت صاحبور (التي هي حقول الراعي بالقرب من بيت لحم) وزوجته من عائلة كبيرة في الأردن. وفي ١٩٦٢ كلاهما كانا من ضمن طلبة التمريض في مستشفى البركة ببيت لحم وحينها كانت ايلين وإيلانور هناك.

عندما تركتا ايلين و إيلانور بيت لحم وعبرتا الأردن إلى الضفة الشرقية منه واتجهتا إلى مفرق بالأردن ، انضم إليهما (ن) و(م) كأعضاء أصليين في فريق العمل وعائلتهما الكبيرة منعت (م) من الدخول بعمق في مجال التمريض حتى يكبر أطفالهما.

ومنذ البداية المبكرة حتى الآن يُعد (ن) من أكثر الخدام الرجال قوة وإثماراً وأمانةً. قالت ايلين: لقد أثبت أنه رجل له أحشاء المسيح وفي قلبه حب شديد لأهل البدو وبالتالي كانوا يتجاوبون مع هذه المحبة ووضعوا ثقتهم الكاملة فيه". ثم أضافت ايلين بتأثر عميق وقالت: إنني أذكر في إحدى الحروب التي تعرضت فيها قرية مفرق لهجوم شديد ، نظرتُ ووجدتُ ستة من النساء يتعلقن به من خوفهن الشديد طالبين الحماية والنجدة أثناء قصف القنابل ، لقد كان مشهداً مؤثراً ومدمهاشاً لأن في ثقافة البدو لا يمكن للنساء أن تلمسن رجلاً ، إن محبته العظيمة للمرضى فتحت أبواباً كثيرة لهم لكي يسمعوا الرسالة .

واستمرت ايلين في حديثها عن هذا الخادم بتقدير عميق واحترام و قالت: لقد رأيتُ رجالاً يدخلون المستشفى بأسقامهم وأجسادهم العليلة للدرجة التي لم يكونوا مبالين باحتياجاتهم الشخصية بينما كان يخدمهم ويعتنى بهم كما يعتنى أب بأطفاله الصغار. كان يفعل ذلك بلطف ورقه تستجلب احترامهم وتقديرهم ، وبعد أن يتعافوا كانوا يأتون من تلقاء أنفسهم ليحضروا اجتماعاتنا في كل مساء ، لقد وجدناهم أكثر استعداداً أن يسمعوا الأخبار السارة وذلك بسبب ذلك الخادم العربي الأمين الذي أظهر لهم محبة الله بشكل حقيقي لا بالكلام بل بالعمل.

إنه هو الرجل الذي ركضت إليه ايلين طالبة المعونة منه من أجل الرؤية التي صارت من أجلها هي وإيلانور وكانت تتشاور معه إزاء كل تهديد أو تجربة تعوق تحقيق الهدف الذي وضعه الرب أمامهما.

لقد اقترب إلي البدو بكل قلبه وكيانه، إنه بالحق واحدٌ من عطايا الله العظيمة لهذا العمل لقد كرّس نفسه للعمل على مدى ٣٣ عاماً تاركاً خلفه صفاً من الذين يعكسون محبة يسوع وتذوقوا تلك المحبة أولاً من خلال خدمته. الخدمة الرحيمة، خدمة لمسات الشفاء كان(ن) عوناً لاييلين و اليانور أيضاً لكونه عربياً ولذا فقد كان وسيطاً بين المستشفى والمصالح الحكومية.

قالت ايلين: أنه يُحسن التعامل مع الجهات الرسمية وقد استخدمه الله في مواقف صعبة وساعدنا أن نجد حلولاً لمشاكل كنا كأجانب سنقف حيالها عاجزين، لكن أمانته وإخلاصه ومحبته الشديدة للبدو هي التي ربطته بفريق العمل وجعلته جزءاً لا يتجزأ من هذا الكيان في مستشفى المفرق.

كانت لاييلين و إيانور مساهمة في تدريب الممرضين والممرضات من الأردنيين الذين جاءوا من القرى المجاورة لمفرق. لقد كان تحدياً عظيماً أمامهما من نواحي متعددة ، فالتدريب كان مختلفاً عما كان في الغرب لأن معظم البنات اللاتي يأتين للتدريب على التمريض لم يتعودن أصلاً أن ينمن على الأسرة فكيف يلتزم أن يرتبن فراش المرضى كل يوم. وهذا ما جعل تدريبهن مهمة ليست فقط صعبة بل ومُحِبطة أحياناً. لكن في النهاية الأمر يستحق الجهد ونحن نرى الثمر ونحن نشاهد هؤلاء الشبان والشابات يقدمون خدمة متميزة وعناية فائقة متحملين المسؤولية.

إن المستشفى وامكانياتها بالمقارنة مع نظيراتها في الغرب تُعتبر أولية جداً أو يمكن أن تقول بدائية ، ورغم ذلك فلها سمعة جيدة في مفرق والأردن وخصوصاً لأنها واحدة من الأماكن التي يلقي فيها المرضى عناية ممتازة.

ليس سهلاً أن تُقدّم هذه الخدمة في وسط لا يقبل بسهولة العلاج الحديث ولم يتعاطأ أدوية من قبل ولم ينم على أسرة مستشفى . وهذا بدون أي مبالغة لأنني شاهدت ذلك بأم عيني "وهم يعلمون كم أحبهم" .

قالت ايلين : بينما كان هؤلاء الأردنيون الأعزاء بيننا بالطبع كانت لنا فرصة أن نقودهم إلى الرب وبالفعل أصبح بعضاً منهم شركاء في الخدمة لا يرون في عمل التمريض مجرد فرصة تعلم مهنة جديدة لكسب العيش بل علموا أنها وسيلة من خلالها يخدمون الله ويقدموا لمسات المحبة والعناية بالمرضى.

واستمرت قائلة: إن قربهم الشديد لقلوب المرضى شئ يثلج صدورنا. وليس غريباً أن ترى الممرضات الطالبات والخريجات يبكين بحرقة عند فقد واحد من أطفالنا الصغار الذين قد ارتبطوا بهم بكل مشاعرهم كما نحن تماماً. عندما جاء هؤلاء الأردنيون إلينا كانوا غير متعلمين وليس لهم خبرة أو عهد بهذه الأمور وخرجوا من عندنا رجالاً ونساءً ذوي خبرة ملحوظة يُمدحون عليها.

وهذا التغير حقيقة نلمسها وخصوصاً في البنات اللاتي يرجعن إلى بيوتهن مهينات للزواج بقرارات جديدة تساعدن على تنشئة أطفالهن تنشئة صحية وسليمة، والعناية بعائلاتهن عناية صحية بأكثر كفاءة.

وقبل أن نترك موضوع جوانب التحدى والإحباطات التي تواجهنا عند تدريب عامل أردني يرد لذاكرتي على الفور أحد المواقف الطريفة التي روتها ايلين بروح الفكاهة والمرح وعلقت بابتسامة "إنها ثقافة مختلفة عن ثقافتنا حقاً، ودائماً نحاول أن نأقلم أنفسنا عليها" ثم قالت: كان معظم العاملون في البساتين من الأردنيين وعندما بدأوا العمل لم تكن لهم أى دراية بطرقنا العجيبة في الغرب حتى حين يحاولون أن يعملوا شيئاً طائفاً أنهم يرضوننا لكن في كثير من الأحيان لا ينجحون في ذلك رغم نواياهم الطيبة.

أتذكر عاملاً طيباً اسمه (ر) يعمل في حديقة الفاكهة الملحقة بالمستشفى وكان يلاحظني كل يوم وأنا أختبر أشجار الفاكهة لأرى إن كان ثمرها قد نضج أم لا. كان لدينا في ذلك الوقت محصولاً كبيراً من الخوخ وفي كل صباح باكراً جداً أقوم وأختبر شجرة شجرة وعندما أجد شجرة قد صار الخوخ فيها ناضجاً للقطف أضع على هذه الشجرة علامة عبارة عن شريطة بيضاء ثم يأتي (ر) ويقطف الثمر الطازج من الشجر الذي عليه العلامة ويجمعه. وفي يوم ذهبت إلى المطبخ في المساء فوجدت صناديق كثيرة من الخوخ الصلب والأخضر لا يصلح لأى شيء ولا حتى لعمل مربى.

فاستدعيت (ر) وقلت له "ما قصة هذا الخوخ ؟ لماذا قطفته وهو نبيء وأخضر ؟ فقال لى: فعلت كما كنت تفعلين تماماً ، أربط الشجرة بشريطة بيضاء ثم أعود وأجمع ثمرها!.

واضح جداً أنه لم يفهم العلاقة بين العلامة التي أضعها والشجرة التي قد نضج ثمرها. فى الغالب أنه أراد أن يُرضيني لكن ليس فى وسعنا أن نفعل شيئاً سوى أن ندفن هذا الخوخ الأخضر.

أغلب الظن أنه اعتقد أن الشريطة البيضاء هى التي تجعل الثمار ناضجة وليست علامة تُميّز فقط الشجرة التي نضج ثمرها بالفعل .

إن التدريب يستلزم نقل خبرات و صبر كثير وروح مرحية كى تُدرب هؤلاء العمال لكن فوق الكل الأمر يحتاج إلى قلب مليء بالمحبة وقد فاض قلب ايلين بهذا النوع من الحب الصادق.

كثيراً ما وقفت فى صفهم وناصرتهم سواء من البدو أو من الأردنيين وهى بكل ثقة تؤكد أنهم حين يتعلمون ويأخذون فرصتهم فإن أداءهم يكون بكل إتقان وكل أمانة ، رأيتها دائماً تدافع عن ثقافتهم وتبرر تصرفاتهم التي كثيراً ما تثير تساؤلات عند البعض. أو يُساء فهمهم وعندما تُثار تلك التساؤلات بشأنهم سرعان ما تجيب بتفصيل عميق وتشرح جذور وأصول عاداتهم بل تجد سروراً فى مدح فضائلهم وذكر خصالهم المتميزة .

هذا هو توجه قلبها نحو الشعب الذى أحبته وكرّست حياتها من أجله، ومشاعرها نحوهم نجدها انعكاساً لما ورد في (أم ١٠ : ١٢) "المحبة تستر كل الذنوب".

وعندما تذكر الناس الذين يمكن وصفهم بأنهم عطية من الله للناس وقد ساهموا في تقدّم العمل تذكر بالتحديد شخصية كانت مساهمتها متميزة وفريدة وهى سمو الأميرة الشريفة (ز). لقد التقت ايلين بالأميرة بطريقة غاية فى العجب.

منذ عشرة أعوام مضت كانت الأميرة تتكلم فى إحدى اجتماعات وزارة التنمية الاجتماعية فى العاصمة ومن الأمور التى طرحتها "من الملاحظ أنه لم يتم عمل أى شئ من أجل البدو"، فوقف شخص وقال بمنتهى الوضوح "يوجد مكان فى مفرق وهناك يتم عمل عظيم" فكان رد الأميرة : إذاً أريد أن أرى بنفسى هذا المكان.

لكن تجربتها الأولى فى زيارة هذا المكان تعذّرت بصورة عجيبة وطريفة ومُحرجة إلى حد ما بسبب تصرف وأحدة من الممرضات بالمستشفى.

وصلت الأميرة إلى المستشفى دون أن تُعرّف أحداً أو تعلن عن زيارتها لقد كانت مفاجأة ولم يتوقعها أحد.

و طلبت أن تأخذ جولة داخل المستشفى وترى كيف يجرى العمل فاعتذرت الممرضة المسئولة بلطف وكياسة وقالت لها "أسفة غير مسموح للزوار أن يأتوا خلال ساعة راحة المرضى". ومع ذلك ركضت تلك الممرضة وأتت بفتاة صغيرة اسمها نورا قد تربّت على يد ايلين منذ طفولتها المبكرة لكى تُريها لتلك الزائرة الطيبة والصبورة.

غادرت الأميرة بكل تواضع دون اعتراض ودون أن تفصح عن هويتها، وفى وقت لاحق اتصلت الأميرة تليفونياً بإيلين وعرفتها بنفسها وقالت ببساطة شديدة: حاولت أن أدخل المستشفى لكن لم أتمكن لأن المرضى كانوا فى وقت راحتهم.

وبالطبع اعتذرت ايلين للأميرة على ما حدث بشعور من الحرج فدافعت الأميرة عن الممرضة فى الحال وقالت "القواعد ينبغى أن تتّبع من الجميع".

عندما جاءت الأميرة فى زيارتها الثانية بكل يقين قد لاقت ترحيباً ملكياً.

منذ تلك الزيارة حتى الآن لم تأت مرة للمستشفى دون أن تُحضر معها لعباً للأطفال المرضى بالإضافة إلى قائمة أشياء تخدم العمل.

هذه بداية العلاقة الرائعة التى تعمّقت أكثر عبر السنين.

كلنا لدينا تصورات فى خيالنا للحياة التى يمكن أن تحياها أميرة ، إنها كأي فرد فى العائلة المالكة ، عندها مشغوليات كثيرة وتُجد فى عملها من أجل منفعة وخير الشعب .

ومن النادر أن تجد حدثاً أو مناسبة تخلو من حضور واحد من أفراد العائلة المالكة يُمثّلهم فى الإحتفال ويتواجد مع المشاركين ويشجع كل من يساهم فى تقدم هذه الأمة.

والأميرة أعطت لمستشفى النور مكاناً فى برنامج عملها وعبر السنوات كانت تخدم جنباً إلى جنب مع ايلين وإليانور حتى فى الأوقات العصيبة وفى وحشة الصحراء كانت تبذل نفسها بكل حب وتضحية لكى تساعد أحبائها من أهل البدو.

هذه الأحداث التي اشتركوا فيها معاً جعلت صداقتهم تتوطد وتنمو باحترام وحب متبادل عبر السنوات.

قالت ايلين : لقد تعلّمتُ الكثير عن ثقافة البدو من خلال مرافقتي للأميرة ونحن نقوم بزيارة قبائلهم في الصحراء.

كانت الأميرة شابة وجذابة جداً ومتفقة ، متعلمة تعليماً راقياً في جامعة بالولايات المتحدة وكأى فرد وُلد ونشأ في عائلة مالكة له نصيب وافر من مواكبة التطور وصور التألق والأبهة ، لكن حينما تخرج للصحراء مع ايلين تجدها بدوية بالتمام في ملابسها وتصرفها.

عندما ينظر إليها أحد يحسبها من نساء البدو مع أن أهل القبائل يعلمون تمام العلم من هم الذين أتوا من أجل مساعدتهم. لم يمنعها أو يُعطلها سمو المركز عن أن تنخرط في عمل جذب قلبها لتسدّد احتياجاً ملحاً حولها. تقوم بتقديم الطعام والبطاطين والأحذية والمعاونة في إدارة العلاج الطبي كأنها واحدة من طاقم أطباء المستشفى وعندما يُقدّم طعاماً بدوياً تجلس الأميرة على الأرض مع ايلين وسط الناس وتأكّل ما يُقدّم لها. بالإشارة إلى مغامرات الصحراء قالت ايلين: لقد عملنا معاً في أوقات الأزمات الشديدة ففي إحدى السنوات تعرضت البلاد لعاصفة ثلجية غير مسبوقه كان الجليد بارتفاع ستة أقدام – وقد شملت العاصفة الجزء الجنوبي من البلاد - ، لم ير البدو في حياتهم من قبل جليداً على الإطلاق وبالتالي لم يكونوا مستعدين لمواجهة كارثة كهذه.

وبالطبع كثير من الخيام قد انهارت تحت ثقل الجليد المتساقط فقتلت كل قطيع الغنم. فاستطاع البدو أن ينجوا بأنفسهم بالهروب من خيامهم بينما لم تنتج الحيوانات. لقد بلغ الجليد إلى أحقائهم وكان هناك فقراء واقفون حفاة الأقدام على الجليد ، إنه أمرٌ رهيب في تلك المناطق المقفرة والبعيدة عن العمران أو أي صور المساعدة أو وسائل النجدة.

كانت جثث الدجاج والحيوانات الميتة تطفو منتشرة على وجه الجليد في كل مكان نذهب إليه. والذين نجوا من الناس كانوا واقفين خائفين مرتعشين في حزن وحيرة واقفين في العراء خارج ما كان يُستخدم بيوتاً لهم.

لقد أخذنا هول الكارثة مع أن مكاتب الأميرة كانت وراءنا والجيش تحت تصرف كل القائمين على الإغاثة.

إن وسائل المواصلات العادية لم تجد طريقاً بل سيارات الجيش الثقيلة فقط هي التي كانت قادرة على أن تشق طريقها حيث لا طريق ممهد.

التفتت ايلين إلى إيلانور وقالت :لو كنا نعيش في زمن مختلف ما كنا نستطيع تقديم العون لتلك المناطق المنكوبة المُبعثرة على وجه الصحراء وبعيدة عن حياة المدن.

وبمرافقة الأميرة وجدوا محطة وراء الأخرى وكل منها في فوضى مأساوية.

قالت ايلين: لأيام كنت أنا وإيلانور والأميرة نُوقف أنفسنا لمساعدة هذا الشعب في محنته بسبب تلك العاصفة ورأيت الأميرة مرات كثيرة تبكي من الحزن والإحباط.

حزن بسبب ضيقة الشعب التى أتت لتنتقذه وإحباط لعدم إستطاعتها منع الخسائر الحادثة. إنها بالفعل امرأة ذات قلب كبير ورحيم ، امرأة فاضلة وأصيلة "تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المسكين" (أم ٣١ : ٢٠).

فى أحد الأماكن التى قمنا بزيارتها بعد العاصفة ، أسرعنا واحدة من نساء البدو نحو ايلين وقالت لها "ألا تذكرينى؟"

فقال ايلين لنا: إنها كانت فى مستشفى مفرق من عشرة سنوات مضت وكان يلزم أن تبقى هناك لعدة أشهر حتى يتم علاجها ولم يكن هناك أى تواصل بيننا وبينها بعد أن عادت إلى قبيلتها على بعد سفر طويل. - فى الحقيقة العاصفة الثلجية حدثت بالقرب من رأس النقب حيث تم تأسيس عيادة هناك على بعد ٣٠٠ كم من مفرق. فقلْتُ له: ماذا تتذكرين من الوقت الذى كنت فيه فى مفرق ؟ والذى أدهشنى وأسعدنى أنها رثمت ترانيم كثيرة من التى تعلّمتها هناك، وشهدت ببساطة عن إيمانها ولها يقين كامل بأن خطاياها قد غُفرت وأنها بالفعل واحدة من أبناء الله.

لقد تذكّرت الرسالة التى سمعتها وهى تُعالج من السل فى مستشفى النور فى مفرق من سنين عديدة ومسافة بعيدة.

بعد أن سمعت ايلين هذا الإختبار المُشجّع تبادلت مع إليانور نظرة لها أبعادها وهما تتذكران ما قد قالته للتو: كيف يمكن أن نصل لهذا الشعب المنتشر فى الصحراء ؟ وها هو الدليل أن الله يريد أن يحقق مقاصده من خلالهما حيث قد وضع واحداً من مختاريه فى كل قبيلة.

تأكيد آخر من الرّب بطريقة العجبية فى إدارة الأحداث كان فى انتظارهما فى المحلة التالية التى ذهبنا لتنفقدا الحال فيها.

فى هذه المرة أسرع إليهما رجل وسأل ذات السؤال "هل تذكرينى؟". أنا نمت عندكم فى المستشفى (كان هذا تعبيراً بدوياً قد يعنى للوهلة الأولى - عندما يقول نمت - أنه قضى ليلة فى المستشفى لكنه يقصد أنه قضى شهوراً عديدة للعلاج من السل فى المستشفى).

فسألته ايلين ذات السؤال الذى سألته فى المحلة السابقة فأجابها الرجل القبائلى بعبارة واضحة وكلمات عميقة مُعبّراً عن إيمانه وعن عمل المسيح الفدائى من أجله الذى غير حياته وقال أنه واثق من غفران خطاياها وواثق أنه ذاهب إلى السماء على أساس ما حصلّه له المُخلص المُقام والذى لم يزل يفعل من أجله.

يجب أن نضع فى اعتبارنا عمل الروح القدس القادر على حفظ وتثبيت هؤلاء الأفراد رغم غياب وسائط النعمة مثل قراءة ودرس الكتاب المقدس بصورة يومية أو الشركة الحلوة بين

المؤمنين رغم أهميتها، وهذا يُصَوِّر لنا بشكل جميل وعد الرب "لا أهملك ولا أتركك" (عب ١٣: ٥) و "وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (مت ٢٨ : ٢٠).
مرة أخرى ايلين واليانور ابتهجتا معاً لما أدركتا أن الله قد سبقهما لكى يتم مقاصده ، كي يخلّص شعبه فى كل مكان.

حتى فى الأوقات العصيبة والأليمة تجد شعب البدو قوياً متماسكاً مُظهراً كرم ضيافته، يبذلون ما فى وسعهم كى يُقدِّموا أفضل ما لديهم لذلك تجدهم يقدمون كوب الشاى الحلو حتى عندما أتينا لنقدم لهم المساعدة.
ثم قالت ايلين: حاولنا جاهدين أن نوفر ملابس للأطفال تتوافق مع مقاساتهم ومرة جاءت طفلة عمرها ٩ سنوات إلى السيارة النقل حيث كنا نوزع الملابس وقالت : أنا إسمى فلاحه وأريد بالطو أحمر وحذاء أحمر فوجدت بعض الملابس والأحذية الحمراء لكن ليست مقاسها، فحاولت أن أقنعها أن البالطو الأصفر والحذاء الأسود يبدو جميلاً عليها ومقاسها تماماً لكن دون جدوى، ظلت تمسك فى حذاء أحمر ضيق وبالطو أحمر مقاسه أكبر كثيراً من مقاسها ولم ترد أن تتنازل أبداً عن طلبها المحدد "البنات هم البنات أينما كانوا".
إن الحب والاحترام المتبادل نحو البدو هو الذي جمع الأميرة وايلين وولّد علاقة عميقة توطّدت عبر السنين.

كانت الأميرة حريصة أيضاً أن تُعلِّم أولادها أن يحترموا التراث البدوى ، عندما كانوا صغاراً أتت بهم إلى مستشفى النور ليزوروا الأطفال المرضى ويهدونهم بعضاً من لعبهم وهداياهم الخاصة. بالرغم أن ابنها الآن فى الجامعة لكن استمرت الأميرة تأخذ ابنتها لتزور معها خيام البدو فى الصحراء ومرة قضت الابنة أجازتها فى الخيام فى الوقت الذى كان فيه زملائها قد قضوا أجازتهم فى باريس أو الريفيرا .

بسبب العلاقة الخاصة بين ايلين والأميرة – خادمة للرّب مسيحية وأميرة عربية – فإن سؤالاً قد أثير بواسطة مُقدِّم برنامج تليفزيونى فى برنامج "ستون دقيقة" على التليفزيون الأسترالى وكان العمل بمستشفى النور هو موضوع الحلقة.

وجه مُقدِّم البرنامج سؤالاً مباشراً إلى الأميرة وقال لها: "كيف وأنت أميرة عربية لكِ هذه العلاقة الرائعة والنافعة مع خادمة مسيحية تعمل فى بلدك؟"

فأجابت الأميرة: إن وُجد أحد يُظهر هذا النوع من الحب واللفظ والرحمة الشافية لشعبى كما رأيته فى هذا العمل فساكون سعيدة بأن أساعده وأقف بجواره.

فى آخر مساء من زيارتنا للبلاد عندما كنا ضيوف غداء على مائدة الأميرة أعجبت بعمق الصداقة الوطيدة التى كانت بينهما.

القصة كلها تجلب السرور وتتلج الصدور وأنت ترى الله بطريقة عجيبة يجمع أناساً من مختلف دروب الحياة أطباء و ممرضات ومهندسين ومزارعين وطباخين وحتى أميرات لكى يحققوا قصده . نعم بالفعل هم عطايا الله من الناس لكى يعمل بهم عمله.

الفصل الخامس (التأقلم من أجل التعايش وبناء الثقة)

بصفة عامة يوجد صدمة ثقافية لمن يعبر من العالم الغربى إلى الجزء المُتقدم فى العالم العربى بينما تكون الصدمة الثقافية أقسى عندما يكون شخص مدعواً للخدمة بين بدو الصحراء. خصوصاً إن أسلوب حياتهم يعود بنا لأيام أبينا إبراهيم الذى كان من أوائل سكان الخيام.

عندما ذهبت ايلين وإليانور لأول مرة إلى مفرق ، كانتا تسكنان فى منطقة مزدحمة وبدائية جداً لقد عانتا كثيراً من العواصف الترابية التى كانت ولم تزل تهب بعواقبها الرديئة . ولم يكن لديهما بدٌ من إحتمالها وإحتمال نتائجها لمدة سبعة أشهر على الأقل فى السنة بالإضافة إلى الحرارة الشديدة والجفاف الذى يميز هذا المناخ.

كانتا تشتركان فى البداية فى غرفة نوم واحدة لأنه لم يكن هناك بديل لذلك ، وكانت لكل واحدة نوبتها للنوم فى المستشفى مع المرضى.

عندما انتقلتا إلى المستشفى الجديدة كانت إقامتهما فى غرف صغيرة قريبة من غرف المرضى. كانت ولم تزل باردة فى الشتاء لأنهما قررتا أن تعيشا فى نفس درجة الحرارة التى يُقيم فيها المرضى البدو حيث لا يوجد لديهم سوى القليل من الدفء فى خيامهم طوال فترة الشتاء.

فقررتا أن يكون مناخ المستشفى مقارب لمعيشتهم فى الخيام حتى عندما يعودون إلى خيامهم لا يكونون قد اعتادوا على مستوى من الدفء لا يمكنهم أن يجدوه فى الخارج ، بالإضافة إلى مخاوفهما من أن يصاب أحدهم بالتهاب رئوى حال خروجه من جو المستشفى الدافئ إلى بيوتهم. هذا يعنى أنهما تعلمتا أن ترتديا طبقات من الملابس مثل البدو حتى تحصلا على الدفء اللازم داخل المستشفى.

ومن عام ١٩٨٨ أقامتا فى مقر إقامة الممرضات فى مساحة أوسع قليلاً رغم إستمرارية معاناتهما من العواصف الترابية المدمرة ، دائماً ما تعترف ايلين بأنهما لم تواجهتا خطراً من الحيوانات المفترسة أو مزيداً من الأمور المُربعة التى يواجهها كثير من الأصدقاء الخدام فى أماكن أخرى بالعالم ، لكن الشئ الوحيد الذى أُبتليت به معيشتهما هو الفئران الصحراوية ، مع أنها صغيرة لكنها مريضة. إذ تتواجد دائماً كجزء لا يتجزأ من معالم الحياة البدوية. كان يلزم أن يحفظوا طعامهم وملابسهم فى صناديق معدنية لأن الفئران تقرض الخشب والبلاستيك حتى أصلب الأنواع منه.

لقد رأيت بعينى بواقى المتاع التالف الذى خرّبته الفئران. كانت لايلين وإليانور قوة وعزمٌ لا يثنيهما شئٌ.

يوجد فى هذا المجتمع نوعاً من القطط يتعايش معهم وتسمى التوتسى تزور كل منهما أثناء الليل وتنام على سرير أحدهما ثم تنتقل للآخر وهكذا من غرفة لأخرى، و كان مألوفاً أيضاً أن تأتى القطّة فى أى وقت من الليل، وفى إحدى الليالى شعرت ايلين أن القطّة تنام على

رقيبته، الأمر الذى لا غرابة فيه ، فقالت "أهلاً توتسى " ثم أخذت تدلك شعرها بلطف وتحكى معها حديثاً حلواً كأى حدوته ليلية مع قطة أليفة.

وبعد أن أخذت تدللها بعض الوقت قالت فى نفسها إن غالباً ما يكون شعر القطة التوتسى طويلاً أما هذه القطة فشعرها قصير فأضاءت الضوء الذى فوق رأسها ولهول صدمتها التى توقف القلب ، اكتشفت حينها أن ذلك الحديث الودى الحميم كان مع فأرٍ ضخم كان قد تسلل إلى الغرفة وصار على رقيبتها وهى نائمة. والعجيب أن الفأر لم يبدُ عليه الانزعاج أو الخوف بل تدرج بهدوء من على السرير عندما أضاءت النور دون أى استعجال. سألتها إحدى الممرضات بعده: هل صرخت؟ فأجابته: وما الفائدة من الصراخ؟ لا يجدى شيئاً.

فى رأيي أنها لو صرخت فإنها على الأقل كانت ستثقب طبله أذنه فلو كنت مكانها لفعلت ذلك، هذا إذا لم أمت من الصدمة أصلاً.

بالنسبة لإمرأة فهى تجربة مريضة لو جزت أنا فيها لكنت مازلت لم أتماثل بعد للشفاء. لعل هذا أحد الأسباب التى جعلتنى هنا ولست هناك بينما ايلين كانت لديها طاقة مذهلة للتكيف والتأقلم مع هذه الظروف.

فى أيامهما الأولى، كان المرضى يأتون إليهما راكبين على الجمال أما الآن فغالباً يأتون بسيارة المستشفى النصف نقل ، مع أن البعض لم يزل يستعمل الجمال أو الحمير كوسيلة توصيل إلى المستشفى.

ليس غريباً أن نرى جملاً أو أكثر مربوطاً عند بوابة المستشفى عندما يكون أصحابهم بالداخل من أجل العلاج، لم يكن الجمل حيواناً محبوباً لايلين.

قالت أنه حيوان غدار قد يعضك فقط لكونك بجانبه وليس لأنك عملت شيئاً يستفزه. لكن رغم ذلك كانت تستعمله أحياناً عندما تريد الذهاب لمكان ما .

بعد أن عاشت ما يقرب من ثلثى عمرها بين البدو ، فإن حُبها العميق لهم يحتوى قدراً هائلاً من الاحترام لهم. رغم طبيعتهم الجافة لكنها وجدت عندهم قدراً كبيراً من اللطف والرقّة داخلهم تحت القشرة الجافة الخارجية.

وبالرغم من أسلوب حياتهم الصعب لكنها رأتهم غير مُتدَمِّرين إذ يعتبرون أن متاعب الحياة هى قدرٌ من الله وقسمته وعليهم أن يقبلوا ما شاء لهم، وهكذا تمضى الحياة.

وفى كل ظروفهم يظلون متماسكين يواجهون الحياة ببشاشة. متوسط عمر الرجل خمسون عاماً والمرأة أقل من ذلك، وهم شعب كريم لم تجد كرم ضيافة مثلما رأيت فى هؤلاء البدو فى أى مكان ذهبت إليه.

حينما تصل إلى خيامهم – فى أيام الحر الشديد – يُقدِّمون لك فى الحال الماء (وهو سلعة ثمينة فى الصحراء) لكى تغسل يديك وقدميك. عندما تأتى عبر الصحراء ، يكون هذا أكثر الأشياء إنعاشاً والذى له تقديره وقيمته. ثم يُقدِّمون لك بعد ذلك أفضل ما عندهم ، وإن كان غالباً شيئاً قليلاً جداً لكنك تعرف أنهم قد حرموا أنفسهم وأولادهم منه لكى يُقدِّموه لضييفهم العزيز.

عندما تدخل إلى الخيمة يُقدّمون لك كوباً صغيراً من القهوة البدوية الصغيرة يليها كوبٌ من الشاي الحلو(الحلو جداً). وإن كانت زيارتك غير قصيرة فستحصل على كوب آخر من القهوة التقليدية مرة أخرى قبل أن تغادر. قالت ايلين إنها تعلّمت الكثير عن الأخذ والعطاء خلال خدمتها ومعيشتها مع هؤلاء البدو، سكان الصحراء المدهشين.

فيما يتعلق بالأخذ ، سرعان ما تتذكر ايلين موقفاً بالتحديد قريباً إلى ذكاراتها ومشاعرها. قالت: حين كنا نزور بين الخيام دخلت أنا وإليانور خيمة بها امرأة وخمسة أطفال وقد فاجأتنا بترحيب حارٍ ومُميزٍ جداً مع أننا لم نتذكرها لكنها تذكرتنا جيداً إذ كانت مريضة لدينا في المستشفى قبل أن تتزوج ، من حوالي ١٥ عام مضت.

لم أكن أتذكر أنني رأيت فقراً بهذا المستوى من قبل كانت خيمتهم عبارة عن شرائط من القماش وكانوا يجلسون على التراب في أرضية الخيمة مع وجود بعض الأغطية القليلة للفرش وبدا لنا أنه لا يوجد أى طعام لديهم.

لك أن تتخيل ما هو شعورنا عندما جاءت تلك المرأة التي كانت مريضة بالمستشفى وقَدّمت لكل منا بيضة كهديّة . حاولنا في البداية أن نرفض لكنها قالت (أنتم حدثتموني عن الرب وهو معي من وقتها إلى اليوم، لقد تبت وقبلته في حياتي لذا يجب أن تقبلوا مني هذه البيضة لأنى لا أملك شيئاً آخر أقدمه هدية له وهو الذى أحبنى ومات من أجلى). يا له من مثال فى العطاء هل نُعطى الرب من عشورنا وتقدماتنا ؟ مما يفضل عنا أم من أعوازنا؟ كما فعلت تلك المؤمنة البدوية الأمانة ؟ "وأما هذه فمنْ إغواها ألقَتْ كلَّ ما عندها كلَّ معيشتها" (مر ١٢ : ٤٤)

لقد قررنا منذ بداية الخدمة أن نتأقلم مع ثقافة البدو فى كل شئ طالما لا يتعارض الأمر مع كلمة الله.

لذلك إنطلقنا للخدمة فى الصحراء وارتدنا الثياب البدوية (عندما ترونها وهى ترتدى تلك العباءة البدوية من الصعب أن تميزوا بينها وبين النساء البدويات الأخريات فيمعدا طولها المُميّز).

إن حل الظلام ووجدنا نفسيهما بعيدتين عن المستشفى وتعذر أمر رجوعهما ، كانتا تقضيان ليلتهما مع النساء البدويات وتناما على الأرض فى خيمة (توجد ستارة مُعلّقة تفصل الرجال عن النساء) و البدو لا يبدون أى شعور بالقلق أو الاستياء من حالة الفقر لكنهم يقبلون الوضع ببساطة ربما لأنهم لا يعرفون شيئاً أفضل.

فى الربيع عندما يكون لديهم غنم وحملان صغيرة فى القطيع ، تتوافر لديهم لحوم الحملان والجداء وأيضاً يصنعون الجبن والزبادى من لبن الغنم لكن فى الصيف عندما يجف العشب الأخضر وتعود الصحراء لحالتها المعتادة يتكوّن غذائهم من خبز (خبز بيتى) يخبزونه من دقيق القمح ويُقدّم طازجاً مع الشاي الحلو، والغريب أنهم يستطيعون أن يعيشوا على الخبز والشاي فقط.

تُصنع خيامهم من شعر الماعز والجداء والذي يُغزل ويُنسج بواسطة النساء ثم يُكونون شرائط بعرض متر للواحدة ثم يخيطنونها معاً ليصنعوا خيام سوداء طويلة ومنخفضة حيث تعيش فيها كل العائلة.

معظمهم يعيش على الأرض لكن البعض لديه سجاجيد تُفرش على الأرض ، السجادة البدوية تُصنع أيضاً من شعر الماعز وصوف الخراف و تُصبغ السجاجيد بمادة مصنوعة من أوراق شجر مُجففة أو بعض أنواع الجذور النباتية إنها صبغات جميلة، والألوان التقليدية هي : الأحمر و الأخضر الداكن والبيج والهافان والأسود والكرمي .
أحد الأشياء التي جعلت ايلين تعجب بالبدو بصورة خاصة هو الارتباط والتماسك العائليّ القوى بينهم ودعمهم لبعضهم البعض لقد انبهرت باحترام الصغار للكبار والمسنين وما يَكُنّه الأبناء البالغون من احترام وتقدير لوالديهم.
المسنون في المجتمع البدوي لهم نصيب وافر من الرعاية والاحترام والحب من أفراد عائلاتهم.

قالت ايلين: عندما ينظر البدو إلى بيوتنا الغربية الممتلئة بكل وسائل الرفاهية والراحة فإنهم لا يحسدوننا فحسب بل أيضاً يتعجبون كيف نعيش بكل هذه الأشياء.
بالرغم أنه مسموحاً للرجل أن يتزوّج أكثر من واحدة في أى وقت يشاء لكنك لا تجد كثيرين لديهم أكثر من زوجة ، الأمر الذي يجدون فيه صعوبة في التكفل مادياً بذلك بالإضافة الى أن الطبيعة البشرية لا تختلف من مكان لآخر إذ إن زوجتين في خيمة واحدة يُولد مشاكل كثيرة ، وكثيراً ما تتولد غيرة ومنازعات في البيت بالإضافة إلى مشاعر الضجر عند أطفال الزوجتين.

أحياناً تجد زوجتين قد قررتا أن تكونا صديقتين، تتعاونان وتعتنيان بأطفال بعضهما، وتعيشان بوجه عام كأختين معاً مع نفس الزوج.
عموماً ، الرجال الشرقيون يحبون بناتهم الصغار ويدلّوهم على الأقل حتى يصلن إلى سن الثالثة عشر حين يكن مؤهلات للزواج.(لم يعد الزواج المبكر جداً بهذه الصورة مقبولا بل تقاومه الحكومة).

ومن الأمور الملفتة للانتباه أن المهر الذي يتم الاتفاق عليه بين أبي العروسة وعائلة العريس والذي يُفترض أنه يوجه لتسديد الحاجات الرئيسية للخيمة الجديدة من أغطية وسرير بمستلزماته الخ.

عادة يكون متماشياً مع المستوى الاجتماعي للعائلات التي تعقد الاتفاق. بالطبع إن الفتاة التي تتزوج لأول مرة تطلب مهراً أكبر من الزوجة التي سبق لها الزواج وخلال العشرين عاماً الماضية كانت الجمال تستخدم كوسيلة دفع للمهر عند العروس، أغلب الزيجات تتم داخل نطاق نفس القبيلة.

ومع أن الشعب البدوي فقير جداً لكنهم يتميزون بالكرم والشهامة.
إن تكاليف العلاج بالمستشفى تُعتبر رسوماً رمزية جداً بالقياس إلى العناية والخدمة التي تُقدمها لهم المستشفى. سبعة دولارات في الشهر تغطي كل شيء ، إقامة وعلاج وفحوصات

ومتابعة. لكن رغم ذلك فأحياناً يوجد مرضى ليس لديهم هذا المبلغ الضئيل لكى يسددوا مصاريف المستشفى عند خروجهم. ليس لدى المستشفى حسابات مُعلقة ولا يوجد أحد يُعتبر مديناً فى حالة عدم الدفع. لكن مرات بعد عدة سنوات تجد أحدهم يأتى ويدفع دولارين عن الوقت الذى قضاه بالمستشفى. لقد رأت ايلين أنهم شعب أصيل وعندهم حس وشعور بالمسؤولية. لا يقبلون معروفاً دون أن يكون لديهم شعوراً بالالتزام الأدبى أن يردوا المعروف بقدره أو بأكثر منه إن استطاعوا. وكما سبق الذكر فإن ايلين وإليانور قد قررتا من البداية أن تتأقلا مع ثقافة الشرق الأوسط فى كل جوانب الحياة طالما أن ذلك لا يتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس.

وها قد جاء اليوم الذى واجه هذا القرار امتحاناً صعباً فى أيام ايلين الأولى للخدمة فى الشارقة كانت قد قدّمت خدمة طبية لإمرأة كان لديها مشكلة تخص الإنجاب وكانت زوجة لرجل مهم وأحد كبار مشايخ القبيلة فقررت تلك المرأة أن تعمل وليمة عظيمة ودعت فيها ايلين وصديقاتها الخدامات الأخريات عرفاناً بالجميل الذى قدمنه لها وبالطبع كانت هذه الوليمة للنساء فقط إذ لم يكن هناك اختلاط بين النساء والرجال فى ثقافتهم.

وقد أقيمت تلك المأدبة على شرف ايلين اكراماً لها فجلست ايلين على الأرض مع صديقاتها وبعض النساء العربيات من طبقة الشرفاء وقد قدّمت لهن صينية كبيرة قطرها حوالى متران ممتلئة بالطعام ومغطاة بالأرز وقد أعدّ لحم الجمل (ايلين قالت أنها أكلت لحم الجمل وهو ليس سيئاً) وداخل الجمل المشوى يوجد خروف مشويّ وداخل الخروف يوجد طائر مشويّ قد يكون ديك رومى أو أوز وبداخل الطائر المشوى يوجد بيضة مسلوقة (غالباً إنه أمر متعلق برمز الخصوبة).

جلّسن على الأرض بأسلوب بدوى وتناولن الطعام باليد اليمنى ومضيفتهن لم تكن تأكل لكن تُقدّم فقط الطعام لكل واحدة من ضيفاتها. كان كلُّ شيء يسير على ما يرام حتى أمسكت مضيفتهن رأس الخروف المشوى وظننت ايلين أنها ستقدم لهن مخ الخروف (كانت أمها تطعمها إياه وهى طفلة ولم تكن ترغب أن تأكل هذا الجزء ولكن طاعة لأمها كانت تأكل على مضض) لكن لم يكن هذا هو الشيء الذى أخرجته السيدة من رأس الخروف. لكن أخرجت عين الخروف وبينما هى تفعل ذلك توقف الجميع عن الأكل واتجهت الأنظار كلها إليها لكى يرون من هى صاحبة الامتياز التى تم اختيارها لتأخذ هذه العين. ايلين لم تكن تعلم وقتها أنها هى صاحبة الشرف التى لها امتياز أن تأخذ عين الخروف ، فسقط قلبها فى بطنها وفى يأس همست لأحد صديقاتها بجانبها وسألته ما ينبغى أن تفعله بهذه العين ! فأجابته "تأكليها بالطبع".

فتسارعت دقات قلبها وهى تتذكر شكل العين البشرية أثناء عملية أجريت فى مدرسة تدريب الممرضات وفكرت "لن أستطيع قضم هذه ! إن فعلت ذلك سوف أقتل لا محالة" لذلك

قررت أن تفعل شيئاً واحداً وهو أن تبلعها دفعة واحدة فهو لم يكن خروف كبير على أى حال، وبكل شجاعة تناولتها وألقتها فى فمها واستجمعت قواها لبلعها مرة واحدة. لكن يبدو أنها كانت تظهر أصغر من الحقيقة فعندما وضعتها فى فمها بلعتها بصعوبة بالغة حتى أن عيناها بدأت تدمع، وبسبب مشقة البلع والقلق ما إذا كانت ستستقر فى معدتها أم لا ، بدأت الدموع تسيل على خديها وكانت تتطلع إلى النساء الجالسات لترى ردود أفعالهن.

وقالت: لدهشتى رأيتهن متعجبات فى صمت وسمعت واحدة منهن تهمس للآخرى وتقول لها إنظرى كيف تأثرت بتكريمها عندما أخذت عين الخروف للدرجة أنها لم تستطع أن تمنع دموعها ، أنظرن كم هى متأثرة !.

ثم قالت ايلين :وأنا أتذكر هذا الموقف القديم أشكر الله ليس فقط لأنه أعاننى على بلع عين الخروف دون أن تتقلب معدتى لكن أيضاً لأنهن اعتبرن أن دموعى تعبير عن شعورى بالعرفان والامتنان لهذا التكريم والشرف.

والقصة لم تنته بعد فعندما عادت إلى المستشفى رتبت مع أحد العاملين أن يشتري لها رأس خروف .. لماذا ؟ حتى تطبخها ونجبر نفسها أن تأكل عين الخروف لعلها تتعود على ذلك استعداداً لهذا النوع من التكريم إذا تكرر مرة أخرى وقد فعلت ذلك عدة مرات دون أن تشعر بأنها ستنقياً.

يا لها من امرأة إن هذا ما يمكن أن نسميه التكيف من أجل التعايش وبناء الثقة. بالرغم من أن الشعب البدوى شعبٌ كريمٌ يشعر بأنه تحت التزام برد الإحسان سواء من الأصدقاء والضيوف أو حتى نحو الأعراب والذين من قبائل أخرى لكن يستلزم الأمر زماناً طويلاً حتى يضعوا كامل ثقفتهم ليقبلوا واحدة من خارج قبيلتهم. لكن حين تجد صديقاً بدوياً يثق تماماً فيك يُمكنك أن تطمئن إلى ولاءه لك لأن هذا النوع من الانتماء والولاء يبقى لبقية العمر.

فولائهم ليس لقضية بل ولأنهم لشخص فى ذاته فبمجرد أن تكسب صداقتهم عندئذٍ تدرك أنك يمكنك أن تعتمد على هذه الصداقة مدى العمر.

من البداية كان الشعب البدوى طيباً مع ايلين وإليانور لكن لم تختبرا القبول الكامل والثقة التى ترجواها قبل أحداث الحرب الأهلية عام ١٩٧٠ .

فى مناسبات متعددة تعرض فيها الشرق الأوسط لأزمات وحالات من التوتر مما جعل كلاً من السفارة الأمريكية والسفارة الأسترالية تنصح رعاياها بمغادرة البلاد. لكن لأنهما لا ترغبان فى مغادرة البلاد فقد قررتا ايلين وإليانور أن تقيما لتعتنيا بمرضاهما فى أيام الأزمات ، و أخبرتا السفراء بأنهما لن تغادرا إلى أى مكان قائلتين: لماذا نترك عملنا هنا عندما تحدث مشكلة ؟ وهل راحتنا وأمننا أهم من أى نفس من هؤلاء البدو المساكين الذين يرقدون فى عنابر المستشفى؟ فقررتا أن لا تغادرا. إذ إن قرار المغادرة هو آخر حل فى أجندتهما.

خلال حرب عام ١٩٦٧ تطوعت ايلين وإليانور للخدمة الطبية فى الجيش فشكرهما القادة وطلبوا منهما أن تكونا فى حالة الاستعداد وإن احتاجوا إلى شئ فسوف يلجأون إليهما. ففى الوقت الذى فيه غادر الكثيرون طلباً للأمان ، ظلت ايلين وإليانور فى خدمة أحبائهم البدو.

قالت ايلين: كنا شاعرتين دائماً بالسلام الإلهى العجيب حتى وسط قصف النيران والطلقات الطائرة.

لقد منحهما الرب سلامه وسيج حولهما لأنهما قررتا أن تبقيا وسط نيران الأزمة وقبلتا أن تتوحدا مع هذا الشعب الذى أحبتهما.

لقد كانت تلك الحقيقة واضحة جلية أنهما التزمتا بالوجود مع الشعب الذى قررتا أن تأتيا لتخدماه وتكونا معه فى أوقات السلم وأوقات الضيق والحرب. لقد أعطاهما الرب شجاعة وشهامة متميزة ومن منظور بشرى كانتا نموذجاً عظيماً للمقدرة على التعايش والتأقلم من أجل بناء الثقة.

أثناء الحرب الأهلية عام ١٩٧٠ فقدتا سيارتهما وبعض المعدات وعومل بعض الأفراد من فريق الخدمة معاملة سيئة من طرف منظمة التحرير الفلسطينية .

وهنا جعل شعب البدو من ايلين وإليانور (إخوة بالدم) وعملوا ذلك الأمر وفقاً لعاداتهم بأن يجرح كل طرف جسمه ويخلطون الدم، وبذلك يصنعون من أنفسهم إخوة مع تلك السيدتين المسيحيتين. وهذا يعتبر إعلاناً رسمياً صريحاً من هذه القبيلة أن من يُعادى أو يعتدى على إحداها يعتبر معتدياً على القبيلة كلها. ومن وقتها فإن أى نزاع يندلع فى المنطقة تجد فريقاً كبيراً من البدو المسلحين يتناوبون على حراسة المستشفى من كل جهة وكأنها راية حمراء تحذر كل من ينوى إيذاءهم.

واستمر هذا الولاء لهذه "الأخوة بالدم" حتى تعرّضت ايلين لحادث مُروّع وكانت قريبة من الموت واحتاجت إلى نقل دم والأطباء فى مستشفى المدينة (المعروفة بأنها المركز الطبى الخاص بالملك) أعلنوا عن حاجتها لنقل دم فى وحدة عسكرية قريبة من مستشفى النور ، فتطوع ثمانية عشر فرداً ليتبرعوا لها بدمهم.

قالت ايلين: فى العالم العربى ، ليس من السهل أن يتبرّع أحد بدمه إذ هى تضحية كبيرة وقد أثر فى هذا العمل وهز مشاعرى بعمق إذ لمست تجاوباً سخياً وشهماً فى وقت الاحتياج.

إن خدمة ايلين وإليانور الرقيقة والجميلة سواء طبياً أو اجتماعياً فتحت قلوب الناس لهما مما يؤكد صحة قول الكتاب "المحبة لا تسقط أبداً" (١كو ١٣: ٨).

إن محبة ايلين العميقة للبدو محبة غير مألوفة وغير مشروطة حتى إن كلّفها الأمر أن تتجول فى الصحراء المتربة أو تنام دون أن تدرى بين الفران أو تخلط دماها مع رجال البدو أو تأكل عين خروف ... فكل ما تفعله يكشف عن ولائها وأمانتها والتزامها أن تُكفّ معيشتها وتتأقلم من أجل التعايش وبناء الثقة والطاعة لدعوة الله أن تخدم فى تلك المنطقة التى تمتلئ بالغرائب والمفاجآت فى الشرق الأوسط.

الفصل السادس (الإله الذى لم يزل يتكلم)

لقد بنت ايلين و إيليانور خدمتهما على مبدأ البحث عن الخروف الضال (مت ١٨: ١٢-١٤)
قالت ايلين: فى دوائر كثيرة لم تعد خدمتنا قصصاً من النجاح لكن طاعة للآب السماوى
نسعى للبحث عن ذلك الفرد الواحد الضال.
لقد وضع الله دعوة خاصة ومميزة فى قلب أمته وخادمته ايلين ومن النادر أن تجد كثيرين
لديهم هذا التوجه .لقد تذكّرت أن الله أعطى مواعيد عظيمة لنسل إبراهيم ليس من خلال
ابنه إسحق فقط لكنه أيضاً أعطى وعوداً لإسماعيل و نسله .
وأشواق القلب أن ترى نسل إبراهيم من خلال إسماعيل يأتون لمعرفة ربنا يسوع المسيح
هو ما جعل دعوتهما للخدمة لها تميز خاص .
والقصيدة التالية التى كتبها "فاى إنشفاون" قد تم نشرها بين جمعيات الصلاة اللندنية فى
إنجلترا فى عشرينات القرن العشرين ١٩٢٠-١٩٣٠ وهى تعرض وجهة نظر يُندر
وجودها فى أيامنا وقد تحقق مضمونها فى حياة ايلين كولمان و إيليانور سولتو.
إبراهيم و إسماعيل
(فاى إنشفاون)

وعينا ساره تلمعان و تشعان فرحاً
إسحق ابن الضحك هاهو يلعب مرحاً
مشغول البال بابنى الآخر إسماعيل

كم مرة نكون فى الخيمة ليلاً دافئين
وهى تسمع هتاف الطفل بملء الحنين
بينما ذهب قلبى عبر الباب وشق السبيل

سألت فى الحال نفسى هل هو جائعاً ؟
يا ترى كيف حال يومك ؟ ليتّه رائعاً !

كلّما أكلنا على المائدة خبزاً طازجاً
ولما نذوق الفرح أرجو إن كان مبتهجاً

يسعون بكل جهد أن يروّنه سعيد
والكل عليه يشن الحرب من جديد

بينما إسحق محبوباً من الرعاة والعبيد
أما إسماعيل فيده على كل واحد وشديد

نعم فى سلام لكن أبداً ما نسيته
قد باركت بيتى و نسلى عظّمته

وإن كنا نعيش فى سلام وأمن دونه
أيها الرب إلهى من جاد بإحسانه

يا أبا الرافات سابقى لماتى لإسماعيل أباً
وهل يهنأ لى ارتياح فى حياتي و ابني غائباً ؟

ولم يزل يوجد من لا يجدوا راحة في نفوسهم وإسماعيل مازال خارجاً تلك الدعوة التي ملأت عيني وقلب ايلين كولمان ، إنها مهمة ومهمة إهتماماً عظيماً بهؤلاء البدو أو أولاد إسماعيل الذين يعيشون عيشة مُرة .
كونها امرأة جعلها تشعر بمعاناة المرأة هناك والتي لها النصيب الأكبر من الشقاء . رغم أن نساء البدو يقبلن الحياة بما تحمله لهن ، لقد قبلن قرعتهن فيها دون شكوى أو تذمر .
وما جعل ايلين تزداد إعجاباً بالنساء البدويات هو قدرتهن الفائقة على احتمال المشقات وقبولهن وقناعتهم في الظروف الطاحنة أن كل يوم يمر في الحياة يعتبر ببساطة إختبار نجاة .
بيت الشعر التالي كتبته امرأة غير مسيحية والتي ذاقت مرارة هذه الرحلة قبل أن تجد الحياة الجديدة في المسيح .

(الرحلة)

رحلة حياة تبدأ في بيت أبي وتنتهي في القبر
مثل جثة محمولة على أكتاف أبي ، زوجي وأقرب الرجال
مغسولة بالدين وأكفان العادات والعرف ، مدفونة في قبور ظلمة الجهل

البدو كثيرو التنقل هذا ليس معناه أنهم يقضون كل ليلة في مكان مختلف كما كنت أتصوّر من قبل لكن عموماً هم شعب رحّل . غالباً ما ينبغي على المرأة أن تحمل الماء من مسافة بعيدة حيث يوجد البئر .
ورغم أن الحكومة حفرت بالفعل عدة آبار ليسقوا غنمهم وحميرهم وجمالهم واحتياجاتهم الأساسية لكن رغم ذلك فإنها بالكاد تكفيهم .
مفهوم بالطبع أن ليس لديهم الفائض من الماء لكي يستعملوه في غسيل الملابس والنظافة الشخصية إذ تأتي في مرتبة ثانية بعد الشرب واعداد الطعام ففي عالم البدو عموماً إن الأولوية للمياه هي للشرب .

بهذه المناسبة مرة كتبت ايلين : عند عودتي إلى مفرق بعد زيارة الولايات المتحدة وجدتُ أني قد استبدلتُ رائحة البرفان الفرنسي القوي الذي يفوح من النساء في إجتماعات أمريكا بالعرق ورائحة الأطفال المبللين .
بالنسبة لي فهذه رائحة البيت : ها قد عدتُ إلى حيث دعاني الرب أن أعمل ما كلفني أن أقوم به .

إن انجاب الأطفال الذكور يشكل أهمية خاصة في حياة النساء البدويات وهي تبدأ في الانجاب بعد زواجها المبكر جداً مباشرة ، والمرأة التي لا تنجب أولاداً أو تنجب بنات فقط قد يُطلقها زوجها .

وهذا الإجراء يتم بمنتهى البساطة فى تلك الثقافة البدائية فقط بكلمة وأشارة إصبع يعلن طلاقها. وليس فى وسع تلك الزوجة سوى أن تعود إلى بيت أخيها الأكبر، وإن أشفق زوج على زوجته العاقر أبقاها فى المنزل وتزوج عليها زوجة أخرى صغيرة على أمل أن تنجب له البنين.

وجود ذرية من البنين له أهمية قصوى لأن ذلك يضمن قدراً من الأمان للأباء عندما يشيخون. إنه التزام عائلي واجب على البنين أن يعتنوا بأبائهم عندما يكونون عاجزين عن إعالة وإعانة أنفسهم.

عندما تُطلق زوجة لا تذهب إلى بيت أبيها، لكن تذهب إلى بيت أخيها الأكبر حتى لو كان أبواها على قيد الحياة وقادرين على إعالتها.

وفكرة الأخ الأكبر أو البكر كونه ملاذاً لمثل هذه الزوجة ألقى الضوء على ما جاء فى (رو ٨: ٢٩) و كان هذا مُشجعاً للبدو أن الرب يسوع يمكن أن نلجأ إليه كملاد لنا فى الضيق لكونه بكرأ بين إخوة كثيرين. كان لهذا الفكر مردوده المشجع لأن فى الثقافة البدوية الأخ البكر له تقدير واحترام وعليه مسئولية والتزام تجاه إخوته.

والمريضات دائماً يعطين أخاهم الأكبر لقباً يحمل فى أعماقه قرابه لهن يتميز بها عن الزوج والأب.

ورغم أن النساء البدويات أميات غير متعلّمت لكنهن على قدر كبير من المهارة والذكاء تؤهلن للتكيف والتعامل مع كل جوانب الحياة الصعبة.

عندما تأتى امرأة بدوية إلى المصحّة فى المفرق غالباً ما يتطلّب هذا إقامة طويلة فى المستشفى ويُعتبر أمراً صعباً بالنسبة لها أن تبقى بعيدة عن بيتها وأولادها شهوراً. وهذا الأمر يؤلّد عندها كثير من المخاوف على رأسها أنها قد تعود إلى البيت وتجد زوجة جديدة لزوجها معها فى نفس الخيمة بسبب غيابها الطويل مما يحفزّ الزوج أن يجد بديلاً لرعاية الأطفال واعداد الطعام واستقاء الماء من البئر وقضاء كل المهام التى تقوم بها المرأة بالإضافة إلى الاحتياجات الزوجية.

أنا أعلم أننى نشأت فى مجتمع غربي ومختلف تماماً لكن كإمرأة أعلم تماماً الشعور المؤلم لأى واحدة أخرى مهما كانت خلفيتها وثقافتها.. تصور كيف تُجرّح الكرامة وتُهان قيمة أى شخص ويُحسب مثل الأشياء التى تُستخدم أو أحد الدواب التى إذا كُسرَت قدمها تبحث عن دابة أخرى لتقوم بالعمل بدلاً من المكسورة!

سألت ايلين وقلت لها :هل فى أيام كأيامنا فى العصر الذى نعيش فيه يستلزم أن يقضى المريض كل ذلك الوقت الطويل بالمستشفى ؟ معظم الحالات التى تُعالج بالولايات المتحدة بنجاح يتم ذلك من خلال جرعات من الأدوية دون حاجة للإقامة بالمستشفى ، بالإضافة إلى تناقص عدد مرضى السل فى أمريكا خلال العشرين سنة الماضية (رغم أنه بدأ فى الظهور مجدداً فى الآونة الأخيرة بسبب وباء الإيدز).

فكان ردها على استفسارى :يوجد برنامج عالمى لعلاج الإصابة بمرض السل وهذا البرنامج تُشرف عليه منظمة الصحة العالمية، وحسب الخطة الموضوعية يتم علاج المرضى تحت اشراف واحد من العاملين بالمنظمة، و يتبع ذلك متابعة مستمرة. وتجرى هذه المتابعة دون داعى للإقامة من خلال العيادات الخارجية.

أما الوضع لدينا فيتطلب إجراءً مختلفاً فقد رأينا أنه من المناسب أكثر أن يبق المرضى فى المستشفى لمدة شهرين على الأقل لكى تُتاح لهم فرصة للتعلّم عن طبيعة المرض بالإضافة أن ذلك يضمن استمرارية وانتظام تناول جرعات العلاج ، الأمر الذى يهملونه خارج المستشفى ، ويوجد سبب آخر وهو أن معظمهم يسافر مسافة طويلة ليصل إلى المستشفى مما يجعل أمر متابعة الحالة صعباً لمعرفة إن كانوا يتحسنون أم لا. أضف إلى كل ذلك أنه خارج المستشفى لا يوجد إهتمام بنظام غذائى صحى أو ماء كافى للنظافة الشخصية التى تُساعد على سرعة الاستشفاء.

وعند ذكر موضوع النظافة ، انفجرت ايلين فى الضحك وقالت : "لقد تذكرتُ للتو حالة من المضحكات المبكيات فى وقت واحد ، من سنوات قليلة مضت تم تشخيص حالة رجل عجوز بأن عنده سل فى مرحلة متأخرة، كنا نرتب خطة العلاج اللازمة وحين علم أنه يجب أن يستحم هرب من المستشفى لم يكن قد استحم منذ عدة سنوات ونظراً لكثرة الترحال فقدنا التواصل مع ذلك الرجل.

ومنذ وقت قريب جداً جاءتنا أسرة مكونة من سبعة أفراد تُعانى من السل وبلاستقصاء عنهم إكتشفنا أنهم أحفاد ذلك الرجل العجوز الذى رفض أن يستحم. لقد مات بسبب المرض لكنه خَلَف وراءه ميراثاً من مرض السل قد أصاب كل أفراد أسرته الذين معه فى نفس الخيمة. ستة أفراد من تلك العائلة جاءوا للمستشفى للعلاج وهم الآن فى طريقهم للشفاء.

ينتشر مرض السل بسرعة مثل إنتشار النار فى الهشيم ، كل هذه العائلات الكبيرة تعيش تحت سقف واحد وغطاء واحد ، بمجرد كحة واحدة تُعرّض العائلة بأكملها للخطر. تواجه ايلين وفريق العمل أزمات السل الحاد يومياً وكثيراً ما اتخذوا الاجراءات العاجلة لإسعافهم وأنقذوا حياة ألوفٍ منهم عبر الثلاثة والأربعين سنة الماضية. والإقامة الطويلة بالمستشفى لها مزايا نفسية وروحية أيضاً ، إنها تُعطى فرصة لايلين وفريق المستشفى أن يتعرّفوا على مرضاهم عن قرب وبصورة أعمق بالإضافة إلى إعطاء المرضى فرصة أكبر أن يضعوا ثقتهم فى فريق المستشفى.

وتذكر ايلين أن النساء بدأن بالفعل يشعرن بأنهن محبوبات وبدأن شيئاً فشيئاً يشاركوننا بأخبارهن المؤلمة والمفرحة والظروف التى تكسر القلب التى يمررن بها. غالباً ما تكون هذه هى المرة الأولى فى حياتهن التى يلمسن فيها الحنان والحب والاعتناء الخاص بهن ، وعندما يكون لديهن هذا الشعور يكن أكثر تجاوباً وتعاوناً وأيضاً امتناناً وتقديراً. لقد أُتيحت الفرصة لايلين أن تكون بينهن (أختاً أكبر لهن) إنها فرصة ثمينة لكسر الحواجز وبناء الثقة تسمح لها أن تحدثهن عن "محبوبها" فيكن أكثر استعداداً فيسمعونها

بآذان صاغية وقلوب مفتوحة. ليس فقط يصغين إليها من باب الاحترام والأدب بل لأنها بالفعل أحبتهن بإخلاص ورأوا تنوq أن يدركن كم يحبهن الله وقد دبر وسيلة لخلاصهن جميعاً.

ربما يعتقد أحد أن المعاناة التى تعانيتها النساء تجعلهن أكثر استعداداً لقبول رسالة الإنجيل أكثر من الرجال. لكن لم يكن الحال كذلك إن تجاوب الرجال أسرع من النساء! لماذا؟ ربما لأن النساء فى هذه الثقافة لم يعتدن أن يأخذن قراراً نهائياً فى أى أمر هام، فهى لا تعلم إن كان من حقها أن تتخذ أى قرار دون موافقة واحد من الرجال، وربما أيضاً بسبب المعاملة القاسية وعدم تقديرها كأنتى جعلها تعتقد أن هذا الامتياز من حق الرجال فقط.

إن الله قد أكرم جنس النساء اكراماً تاريخياً عندما تجسد وجاءنا مولوداً من امرأة ، وتمتلى الأنجيل بمواقف نرى فيها إكرام الرب للنساء واعطائهن كرامة سببت تغييراً ثورياً فى زمن تجسده.

وعند قيامته المجيدة أظهر نفسه حياً أولاً لمريم المجدلية (يو ٢٠ : ١٧) وقد أعطاها الرب تكليفاً بأن تقول للتلاميذ "قولى لإخوتى". ثم جاءت إلى القبر الفارغ نساء أخريات ذهبن لكى يضعن أطياب على جسد يسوع وهناك استقبلن اعلاناً من الملائكة عن قيامة المسيح "لماذا تطلبن الحى من بين الأموات" (لو ٢٤ : ٥-٨).

الأمر الذى لم يُصدقه التلاميذ (الرجال) فى البداية وظنوا أنها تخيلات من النسوة. لقد شرف الرب النساء وهذه المواقف كلها كانت برهاناً عن اكرامه للمرأة وأعتبرها وساماً من الشرف لى ولبنات جنسى.

استخدام الرب لايلىن وإيليانور يبرهن أن الرب لم يزل يتكلم ويرسل "قولى لإخوتى". إنه اليوم يعيد التكليف نفسه (لنساء قد رأينه) بالرغم أن رجال البدو أكثر انفتاحاً وقبولاً لرسالة الإنجيل ورغماً عن الصعوبة التى تبدو أمام النساء ليختبرن ذلك. لكن لدى اختبار يبين قدرة الله أن يخرق الثقافة السائدة ولا يوجد ما يمنع رغبته وقدرته أن يصل إلى هؤلاء النساء البدويات.

اسمعوا هذه القصة من ايلين وهى تحكيها بأسلوبها :

"كثيراً ما رأيت أن الله يتكلم إلى النساء من خلال الأحداث المتنوعة إن الله يوصل صوته لهن بصورة واضحة وبليغة لا تخطئ . بصورة أعظم جداً مما نفعله نحن، فمهما طالت فترة وجودنا بينهم فنحن دائماً ما نفكر بطريقتنا الغربية. أتذكر امرأة كانت تعانى من عدم القدرة على الإنجاب وإستطعنا أن نساعدنا من خلال تقديم خدمة طبية ومتابعة علاجها وفى النهاية أعطاها الله ابنأ، كنا نتولى علاجها طوال فترة التسعة أشهر وخلال تلك الفترة كنا نشاركها بكلمة الله ، لقد اعتقدنا - ولم يكن لدينا شك - أنها قبلت طريق الله الذى أعده لخلاص البشر بينما لم يكن الحال كذلك.

لقد سررنا بأن الله أعطاها ابنأ ففكرنا فى أنفسنا (الآن حان الوقت لتدرك روعة الشعور بغفران خطاياها) لكنها لم تشعر بذلك، بعد مرور عامين سمعنا أن ذلك الطفل الصغير الذى

صلينا من أجله كثيراً ، والذي نال عناية خاصة وهو رضيع قد مات فجأة بسبب مرض صحراوي وسمعنا أن تلك الأم المسكينة تغوص في حزن شديد ولا تريد أن تتعزى. فقررنا أن نذهب إليها في الخيمة التي تسكن فيها ، لست أعلم ماذا أقول لها ، فلم أكن أماً من قبل ولم يسبق لى أن أفقد طفلاً لكن فقط أردت أن أكون بجانب تلك المرأة المنكوبة وهي تجلس وحدها في الخيمة.

لم نفعل شيئاً سوى أننا جلسنا معاً على أرضية الخيمة في تلك الليلة الباردة من ليالى الشتاء وبكيننا معاً. ثم بدأت أقول لها إن ابنها الذى مات هو الآن في السماء، لكنها لم تردده في السماء إنها تريده أن يكون في حضنها، ومما يزيد من آلامها وحزنها أنه الابن الوحيد، لم يكن لها أولاد آخرون غيره.

وبينما نحن جالسون في صمت داخل الخيمة لاحظنا أحد الرعاة خارج الخيمة وهو يقود قطيع صغير من الغنم مقابل جدولٍ ضيقٍ عرضه متران تقريباً وكانت مياهه ليست عميقة بسبب ندرة المطر (عمق المياه لا يزيد عن شبر) ورغم ذلك وقفت الخراف لا تريد أن تتحرك لى تعبر ذلك الجدول رغم أن الراعى أخذ يدفعها للأمام وينتهرها دون جدوى وأخيراً فى احباط شديد أخذ الراعى حملاً صغيراً على يديه وعبر به ذلك الجدول الصغير ووضع في الخيمة التي تبيت فيها الخراف على الجانب الآخر.

فقامت أم ذلك الحمل وتبعته فوراً وراء طفلها وبغريزة القطيع التي عند الغنم تبعها أيضاً باقى الخراف وعبروا الجدول ودخلوا معه إلى الخيمة .

توقفت الأم الحزينة برهه عن البكاء وهي تتأمل ذلك المشهد الدرامي ثم عادت وانفجرت من جديد فى البكاء بصورة أكثر من ذى قبل فاندھشت وقلت لها : لماذا تبكين هكذا ؟ ماذا حدث ؟ فأجابت :لمدة طويلة وأنتِ تحدثينى وتقولين لى أنه ينبغي أن أتى إلى الله من خلال الطريق الذى أعده من خلال ابنه ولم أرد. لذلك أخذ الله حملى الصغير وعبر به هذا الجدول ، جدول المياه الحية الجارية وعبر به إلى السماء ولأنه يعلم أننى أتلهف أن أكون مع ابنى فدعانى أن أتى إليه من خلال الطريق الذى أعده. ثم استمرت تبكى وتقول لى "من فضلك خبّرينى أكثر عن طريق الله، أريد أن أتأكد أننى سأكون فى السماء مع الله ومع حملى الصغير.

فقلت بتذكرتها بكلمات بسيطة عن طريق الله (أن يسوع مات على الصليب بديلاً عنها وعندما تؤمن به سوف تنال الحياة الأبدية وبذلك تضمن أن تكون مع ابن الله ومع ابنها الصغير).

وجب علىّ أن أعترف بأنه كلما تذكرتُ تلك القصة المؤثرة التي تحرك مشاعرى ، القصة الأليمة والعظيمة أندھش من طرق الله العجيبة. ياله من إعلان إلهى عجيب لتلك السيدة البدوية المسكينة الجالسة على التراب داخل خيمة متواضعة تبكى وحدها بحرقه فى قلب الصحراء لقد أكد لى هذا الأمر حقيقة صارت متأصلة فى كيانى الداخلى وأعماق قلبى.

"أن عيناه تجولان في كل الأرض" وهو يعلم كل شيء ..العصفور ليس منسياً منه"
(مت ١٠ : ٢٩).

إنه بالحقيقة يريد أن نأتي إليه ونلقى كل همومنا عليه (١بط ٥ : ٧) بالحقيقة شعور رؤوسنا جميعها محصاة (مت ١٠ : ٣٠).
إنه حقاً لا يقبل الوجوه بل في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبولٌ عنده (أع ١٠ : ٣٤).
وأنه حقاً يحب كل واحد منا محبة شخصية عميقة لدرجة أنه مات عن كل واحد شخصياً (يو ٣ : ١٦) وأنه حقاً حي.. نعم حي (عب ٧ : ٢٥).
من أجل خيمة إبراهيم ، نعم من أجل نسل إبراهيم بالإيمان ببسوع المسيح (غل ٣ : ٢٩)
الرب يفرح بفرح يرجوع واحد من خرافه التي ضلت وبنفسه يبحث عن سيدة من نسل إبراهيم ويردها إليه.
ياله من رمز مدهش وياله من حنان عجيب وحب أبوى "الله لم يزل يتكلم"

"الرَّبُّ راعِيّ فلا يُعوزني شيءٌ ، في مراعي خضرٍ يُربضني إلى مياة الراحة يُوردني يردُّ نفسي. يهديني (مز ٢٣ : ١، ٢، ٣أ)

الفصل السابع النقط السوداء المنتشرة على وجه الصحراء

فى عام ١٩٩٠ حين كان لايلىن وإليانور طاقة متاحة لعمل جديد، زارتهم الأميرة وعرضت عليهما تحدياً مدهشاً.

قالت الأميرة لهما أنه يوجد إحتياج شديد لخدمة طبية من خلال عيادة صحية جنوب البلاد حيث البدو هناك فقراء جداً و ليس لديهم المقدرة على دفع أجرة الأتوبيس من عندهم إلى المستشفى فى المفرق رغم أنها لا تزيد عن عشرة دولارات والمسافة من الجنوب حتى موقع المستشفى حوالى ٣٠٠ كم نحو الشمال. لذا تُعَدُّ على معظمهم أن ينال فرصته للفحص والعلاج.

رغم أنهما كانتا قد اقتنعتا وانجذبنا للفكرة التى طرحتها الأميرة لكنهما شعرتا أن المشروع قد يكون اكبر من أن يقوما به ، غير أن إليانور – التى كان عمرها ٧٤ عام آنذاك – تحمست جداً لاقتراح الأميرة و كلما سمعت أكثر زادت رغبتها فى انجاز هذا المشروع وسد هذا الإحتياج الشديد .

كان عقل إليانور مأسور بفكرة تأسيس مركز للفحوصات للبدو بالجنوب. وبهذه الرؤية الجديدة تحرك قلبها مجدداً بالوعد الذى جاء فى كلمة الله "وأما منتظروا الرب فيجدون قوة يرفعون أجنحة كالنسور ، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون" (إش:٤٠:٣١).

لما علمت الأميرة أنها متحمسة جداً لهذه المغامرة الجديدة بدأت تقترح المواقع المناسبة لهذا المشروع. إحدى الاقتراحات كانت إستراحة على الطريق الصحراوى ومملوكة للحكومة وتتبع إدارياً قرية رأس النقب.

تلك القرية الصغيرة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى ميناء العقبة، لكن نظراً لأن الطريق إلى البحر الأحمر قد تم إستبداله بطريق جديد أحدث منه، لم تعد تلك الإستراحة – التى على الطريق القديم – لها أى استخدام لذا بقى هذا البناء المهجور القائم على قمة الجبل فى قلب الصحراء المترامية الأطراف ينتظر هن هناك. عندما فحصنا المبنى وجدناه سليماً مع أنه مهجورٌ، فقط يحتاج إلى بعض الإصلاحات. ووجدناه ملائماً أيضاً للغرض الذى يريدونه من أجله. وهذا ما جعلهما أكثر حماساً. بعد التفاوض مع الحكومة استطاعتا تأجيرهُ مقابل رسوم سنوية زهيدة . وبمساعدة أصدقاء من أمريكا وأستراليا تمكنا من عمل الإصلاحات اللازمة لتأسيس وتجهيز العيادة.

المنظر المقابل لساحة العيادة كان منظرأً خلاباً إذ تقع العيادة على قمة جبل إرتفاعه ١٦٠٠ متر ويمكنك أن ترى من هناك أميالاً من الصحراء الشاسعة والجبال الصخرية بمختلف إرتفاعاتها فى الأفق البعيد.

وعلق "روي جوستافون" كرحالة ومرشد سياحى أن الصخور أكثر من التراب.

وفى زيارتنا الأخيرة للمنطقة كنا نقف نتأمل المنظر وعيوننا تلتهم المشهد الذى يخلب العقل. وسألتنى إيلانور وقتها هل ترين شيئاً سوى الرمال والصخور ؟ فأجبت على الفور لا فناولتنى المنظر المَعظم لكى أرى به فأخذت أضبط المنظار بيدي وأنا أوجة العدسة نحو رمال الصحراء فى الأفق البعيد لم أصدق عينيّ لقد رأيتُ عدداً من النقط السوداء تملأ المشهد كل نقطة سوداء تُمثلُ خيمة من خيام البدو. هؤلاء البدو القدماء كانوا متفرقين ومنتشرين على سطح الوادى عند السفح المقابل للعيادة مباشرة.

هذه الحقول ذات النقاط السوداء فى الحقيقة هى نفسها الحقول التى إبيضت للحصاد . وأنا أفكر فى هذا الأمر قلتُ فى قلبى :ليس عجيباً أن الله لا يحتاج أبداً لتلك المناظير المعظمة إذ " ليست خليقة غير ظاهرة قدامه" (عب ٤ : ٣)

فوق هذا الجبل الشامخ أقيم مركزٌ علاجيٌّ وإن كان بسيطاً لكنه كافى إذ يحتوى على وحدة أشعة وقسم للمعمل بالإضافة إلى حجرة كبيرة للطبية "سولتاو" والممرضة الممارسة. لمقابلة المرضى والكشف عليهم وتوفرت أيضاً شقة صغيرة للطبية وغرفة للضيوف بالإضافة للحمام والمطبخ وغرفة الطعام كما تم توفير مساحة تكفى لإقامة الممرضة وزوجها المسئول عن صيانة الوحدة بأكملها.

كان بالقرب من عيادة رأس النقب قسم شرطة لم يكن مُستخدمًا لفترة طويلة . كان المبنى جميلاً وكان سمك السور ٤٠ سم ليُعزل عزلاً جيداً . كان مصمماً على طراز عربى عتيق له مساحة كبيرة ملحقة به بالإضافة إلى اسطبل للخيل وغرف للضباط للإقامة فيها وبفضل جهود الأميرة تم استجاره أيضاً.

قام فريق عمل بطولى من أستراليا باصلاح وتجهيز المكان وقد جاءوا بمعداتهم وتم تأثيث المكان وتجهيز غرف لفرق الخدمة التى تأتى لتخدم فى رأس النقب. قالت ايلين: منحنا صديق ١٥ شجرة تفاح لكى نزرعها مع أشجار فاكهة أخرى حول مبنى الشرطة السابق، الأطفال المحليون أكلوا معظم الفاكهة وما تبقى أخذناه للمرضى بالمستشفى فى مفرق.

لقد دبر الربّ لهما عيادة متنقلة حتى يمكنهما التوجة للقبائل البعيدة والذين تعذر عليهم المجئ إلى مقر العيادة مما مكّنهم من الوصول للبدو الذين لم يسمعو عن العيادة. متوسط عدد الذين كانت إيلانور تعالجهم فى اليوم الواحد فى حدود الخمسين مريضاً وذلك عندما ينتقلون بالسيارة المجهزة إلى مواقعهم حيث هم. كان بإمكانية ايلين مرافقتها مرتين فى الأسبوع على الأكثر نظراً لكثرة مشغولياتها فى مستشفى المفرق.

عندما يسافرون إلى القبائل فى الصحراء يقومون بفحص المرضى وتشخيص أمراضهم والقيام بعلاجهم بقدر الامكان، أما فى الحالات الحرجة جداً فإنهم يستعملون العيادة المتنقلة أوسيارتهم الخاصة فى نقل المرضى إلى مستشفى المفرق والتى تبعد ٣٠٠ كم نحو الشمال.

عند الاحتفال الخاص بالإفتتاح الرسمي للعيادة فى رأس النقب حضر كثير من الشخصيات البارزة فى البلاد منهم الأميرة وأميرة أخرى معها وقد شاركتا فى مراسم الإفتتاح. البدو العرب يحترمون كبار السن وذوى الرؤوس التى كللها الشيب. أضف إلى ما لإليانور من شعر أبيض كان لها أيضاً هيبة واحترام بين شعب البدو كطبيبة لها سمعة طيبة وتحظى برصيد من التقدير فى طول البلاد وعرضها.

لكم أن تتصوروا المجال الكبير الذى تؤثر فيه من خلال العيادة وذلك فى وقت قصير فعندما يصل خبر وجودها فوق الجبل يتوافد الزائرون من مختلف مستويات المجتمع و يأتى الشيوخ فى زيارات اجتماعية لتناول الشاى معها ويحضروا معهم بعض مرضاهم للعلاج ، لكن كان بالطبع معظم المترددين على العيادة من الفقراء. كانت إليانور تعالج من ١٢ - ١٣ شخصاً يومياً مما يجعلها مشغولة كل الوقت لأنها تقوم وحدها بالكشف والتحليل المعملية وأيضاً الأشعة. أما بالنسبة للعيادة المتنقلة فكان يمكنها أن تعالج عدداً أكبر لكن بإجراءات ومستوى أقل نسبياً.

إن حجم العمل الذى تقوم به بالنسبة إلى عمرها المتقدم يعد عملاً مدهشاً. عندما نعود بذاكرتنا إلى العمل الضئيل فى بداياته المبكرة سنة ١٩٦٥ من المدهش أن ندرك أنه بواسطة هاتين السيدتين قد إمتد واتسع العمل اليوم سواء أعمال الرحمة أو الخدمة حتى الحدود مع السعودية جنوباً وسوريا من الشمال والعراق من الشرق وإسرائيل من الغرب مع الأخذ فى الإعتبار أن البدو لا تحدهم أو تحدد إقامتهم الحدود السياسية فهم يرحلون وينتشرون.

كذلك أيضاً لا حدود لمحبة الله التى إنطلقت وتدفقت بينهم فى هذه المنطقة و لولا اهتمام إيلين وإليانور وتنقلهما ما وصلت تلك الخدمة الرحيمة إلى هذا الشعب.

إن ما يشجع القلب هو أن الله يهتم بهؤلاء (النقط السوداء المنتشرة على وجه الصحراء) وهو الذى يراهم ويحبهم والآن قد أرسل خادمته الفاضلتين إيلين وإليانور لكى تستعرضا محبة الله وقلبه الرحيم لهذا الشعب بصورة شخصية متفردة

قال يسوع "و لى خراف أخر ليست من هذه الحظيرة ، ينبغى أن آتى بتلك أيضاً فتسمع صوتى وتكون رعية واحدة وراع واحد" (يو ١٠ : ١٦).

الفصل الثامن (حروب وأخبار حروب)

في يوم من الأيام التي زارتنا فيه ايلين في البيت دارت المناقشة حول أصول القبائل المختلفة بين البدو المنتشرين في الصحراء عبر الشرق الأوسط بأكمله وقد ذهلت من كم المعرفة التي وجدتتها لدى ايلين عن عدهم وأصولهم وتاريخهم وعن مجموعات أخرى خارج حدود الأردن.

فسألته كيف عرفت كل هذا عن هؤلاء البدو؟ عن تاريخهم وعاداتهم ومواقعهم الجغرافية؟ فأجبت ببساطة: سير جون جلوب هو الذي علّمني هذه الأشياء. انفجر زوجي بدهشة شديدة: هل تعرفين جلوب باشا؟؟

فأجبت: تراسلنا كثيراً وتحدثنا على التليفون مرة عندما كنت في إنجلترا إنه الشخص الذي علّمني معظم ما أعرفه عن البدو.

كان زوجي ملاحاً في القوات البحرية أثناء الحرب العالمية الثانية وقد درس التاريخ العسكري، واستمر يسألها "لما لم تخبرينا من قبل بأنك تعرفين جلوب باشا؟" فقالت بابتسامة: لأنكم لم تسألوني قبلاً.

بالنسبة لي فالاسم كان علماً مألوفاً لكن كان لدى الكثير من الفضول أن أعرف ما الذي كان يتميز به هذا الرجل الذي يتحدثون عنه والذي علّم ايلين كل هذا.

كانت منطقة الشرق الأوسط، منذ بداية التاريخ حتى يومنا هذا، مسرحاً للصراع الدموي فقد شهدت تلك المنطقة الملتهبة حروباً دامية لذلك يمكنني أن أستعير كلمات الرب يسوع "حروب وأخبار حروب".

تلك المنطقة تُمثّل جسراً يربط أفريقيا وأوروبا والشرق. فإن الجيوش من كل جهة حاربت في تلك المنطقة التي تضم حالياً الأردن وسوريا وفلسطين وإسرائيل والعراق ولبنان. وعبر القرون القديمة كانت قبائل البدو القدماء الساكنون في تلك المنطقة يحاربون في صف أحد الغزاة (يتحالفون معهم أو يحاربون ضدهم) مما يجعل قبيلة تحارب الأخرى وهكذا تنتقل العداوة وتورث من جيل لآخر وحيث لا يوجد إتحاد بين هذه القبائل (إذ قد تستخدم الغزاة مبدأ فرق تسد) فقد صاروا ضحية للكراهية التي زُرعت بينهم وأيضاً ضحية لاستغلال الأجانب.

معظمنا قد شاهد فيلم دافيد لين الشهير "لورانس العرب" وهي قصة ذلك الضابط العسكري الإنجليزي الفذ الذي لأول مرة استطاع أن يحقق وحدة مؤقتة بين القبائل المتعادية لكي يناصروا الإنجليز لهزيمة الأتراك سنة ١٩١٨ وهو المارشال إدموند (أولينبي) ذلك اللواء البريطاني الذي طرد الأتراك.

وكان العقيد جون جلوب يخدم تحت قيادة القائد العسكري للنبي. وقد تم اختيار جون جلوب كي يشكل جيشاً أردنياً والذي تسمى لاحقاً بالكتيبة العربية. والجيش الذي درّبه والذي كان يتألف من البدو كان يُعد من أقوى الجيوش العربية في ذلك الوقت.

وبعد تقاعد السيد جون جلوب بدأت ايلين فى مراسلاتها معه وعندما اقترحت عليه أن يكتب كتاباً عن مختلف القبائل العربية
كان جوابه : إن كتبت كتاباً عن "أنواع الزهور" أو "دليل السياحة فى إنجلترا" سوف أجد
اقبالاً من القراء لكن من يبالى بأنواع القبائل البدوية باستثنائك أنت !!
لكن رغم ذلك تجاوب بشكل عظيم مع ايلين إذ وضع أمامها خريطة بها قبائل البدو بمختلف
فئاتهم وقد شاركها برصيد كبير من معلوماته الشخصية الوافرة عن تلك المجموعات
المختلفة.

وعندما سألت ايلين أين هذه المراسلات النادرة قالت بحزن: لقد أقرضتها لأحد الخدام
الذى أضاعها بعد ذلك.

باله من شئ عجيب أن تلك المعلومات التى جُمعت لتخدم الجيش آل بها الأمر أن تُستخدم من
أجل إمتداد عمل الرحمة والشفاء بل الحياة الأبدية . هذه هى خطة الله العجيبة.
من بلكونة العيادة فى رأس النقب يمكن أن نرى فى الأفق تلك المنطقة التى شهدت إحدى
المواجهات الحاسمة للورانس العرب عندما إتحدت القبائل فى مهاجمة أحد القطارات التى
تمتلئ بجنود الأتراك وذلك المشهد المرعب قد تصور بشكل درامى فائق فى فيلم لورانس
العرب وهذا الهجوم قد تبعته نصره عظيمة لصالح (أولينبى) وقد أنهى الإحتلال التركى
عام ١٩١٨.

ولكن فى ذلك الوقت بدأت صراعات من نوع جديد تندلع فى المنطقة تتخللها الفترات
القصيرة من السلام .

ها الآن إليانور وإيلين وعيادتهما المتنقلة تنتقلان فى ذات الموقع من الصحراء لتزورا تلك
النقاط السوداء وقد جاءتا لسكان المنطقة بالرجاء والشفاء والسلام الأبدى مع الله وبعد ما
يقرب من عامين من انتقالهما إلى هناك فى مفرق عام ١٩٦٥ وجدتا نفسيهما فى قلب
أحداث صعبة فى حرب ١٩٦٧.

وكانت القتال والطلقات تطير فوقهما والقصف بالصواريخ فوق المستشفى مباشرة تستهدف
قاعدة جوية بالقرب من المستشفى وهذه أول تجربة لإيلين فى حياتها مع الحروب
والصواريخ ولقد قُصفت القاعدة الجوية ثم بدأ القصف يتجه للجيش الأردنيّة المقابلة
لأبواب المستشفى.

قالت ايلين "أصعب ما يمكن أن يحتمله أحد هو اختلاط صوت القصف بصوت الصراخ
فحالة الرعب التى كانت عند الأطفال ، تضنى الحشى ، الضيق والحزن الذى غمر
العائلات التى جاءها خبر موت أولادهم أو آبائهم جعلنا نتحقق أن الحرب لم تخلف سوى
الخراب والعذاب فهى مكلفة جداً ومُتلفة جداً.

فى الحقيقة الخسارة من نصيب كل الأطراف المتنازعة. فى الحرب ليس من يربح ،
والحزن والضيق يبدو أن لا حد لهما وكان لكل عائلة نصيب فى هذا الميراث النعيس.
كل يوم كنا نلتقى بإحدى العائلات المنكوبة بسبب الحرب التى زادت الطينة بلة فأضافت
لضيق المعيشة وصعوبتها مراراً وشقاءً.

ونتيجة للحرب أغلقت الحدود وتأثر الرعى مما أدى إلى سوء التغذية وانتشار الأمراض ومن شدة الفقر كان البعض لا يستطيع أن ينصب خيمة يقيم فيها.

وقد رأت ايلين بنفسها حالات من الشعب الذين يقيمون تحت شجرة أو في أحد الكهوف. كانت تعالج امرأة جاءت إلى المستشفى وقد بدا عمرها وكأنه ٨٠ عاماً مع إنها لا تتعدى ال ٣٠ من العمر ووزنها حوالى ٤٠ كجم فسألت ايلين إذا ما كان البدو يحملون سلاحاً في خيامهم فقالت نعم كل الرجال يحوزون سلاحاً لكي يدافعوا عن أنفسهم من الذئاب أو أى وحش يُرى بالإضافة إلى أى أعداء من البشر قد يتعرضون لهم خصوصاً أن عدداً منهم ليس بقليل ليس له خيام يقيم فيها.

والحرب التالية التى اجتازتا فيها هى فى سبتمبر سنة ١٩٧٠ حيث اندلعت الحرب الأهلية، و مرة أخرى يُطلب من ايلين وإليانور أن تغادرا البلاد ولكنهما رفضتا.

فى هذا الوقت حدث انقلاب عسكرى بسبب منظمة التحرير الفلسطينية .

وتقول ايلين: عندما هجم علينا بعض الجنود من منظمة التحرير الفلسطينية سلبوا سيارتنا وعندما تكون أمام فوهة البندقية لا يمكنك أن تعارض وقد بذلت ما فى وسعى أن أسترِد سيارتنا وفى الحقيقة لا يمكننا التحرك مطلقاً إن لم تتوفر لنا وسيلة مواصلات (فى ذلك الوقت كنا فى المستشفى الصغير فى المفرق).

ومن العجيب أننى لم أكف عن التردد على مراكز القيادة الخاصة بهم ولم أنجح فى إسترداد سيارتنا لكن نجحت فى بناء نوع من العلاقة الغريبة التصرفات!

فى الحقيقة كان ولائى التام للملك ولدىّ استياء ورفض شديد لكل ما يفعله أصحاب حركة التحرير الفلسطينية.

مرة توجهت إلى أحد قادة أبى نضال فى منظمة التحرير الفلسطينية ووجهت إصبعى فى وجهه كما تنتهر أم طفلها المتمرّد وقلت له "أنتم سرقتم سيارتنا لذلك يجب أن تقوموا بكل المشتريات الخاصة بنا" وهل تصدق أنهم بالفعل فعلوا هذا؟ كان واحد منهم يأتى كل يوم بعربة تُجر باليد ويذهب للسوق ليشتري الفاكهة والخضار اللازم للمرضى بالمستشفى.

وقلت لهم ألا يحضروا طعام غير جيد مثل فاكهة معطوبة أو تالفة وإذا فعلوا ذلك سأجبرهم على إسترجاعها وإستبدالها بأخرى جيدة. وبالفعل وجدتهم يفعلون ذلك ولا أعرف كيف كانوا يعودون فى الحال بنوع أفضل وأجود كثيرأمن المتوفر فى السوق وكانوا أيضاً يرسلون الغذاء إلى لستر جيتس الذى كان يعمل فى أعمال البناء فى ذلك الوقت فى مكان يبعد عن المدينة ٨ كم.

ها ايلين ليس فقط تقف وتتصدى لهجوم مجموعة من منظمة التحرير الفلسطينية بل أيضاً ألزمتهم أن يأتوا من أجل المشتريات يا لها من شجاعة ... يالها من علاقة عجيبة ليس لها مبرر سوى أن الرب وراءها ولا أملك سوى أن أذكر ما جاء فى الكتاب المقدس فى (أم ١٦: ٧) "إذا أرضت الرب طرقُ إنسان جعل أعداءه أيضاً يُسلمونه"

لكن يبقى شئ في القصة يجب أن يُذكر... بعد انتهاء الصراع سمعوا في المستشفى أن سيارتهم "النصف نقل المستخدمة في المستشفى" وهي إحدى السيارتين المسروقتين قد رآها أحدهم في سوريا بالقرب من الحدود الأردنية السورية.

ثم قالت ايلين: نظراً لأنني أنا الوحيدة الغيرأمريكية في فريق العمل فكان عليّ أن أذهب إلى سوريا لأرى إن كانت تلك حقيقة أم إشاعة وفي تلك الأيام لم يكن مسموح للأمريكيين أن يدخلوا سوريا بسبب الظروف السياسية.

وهكذا ذهبت وعندي بعض المخاوف مما يمكن أن أواجهه في تلك الرحلة كان لديّ هذا الشعور طوال الطريق وحتى بعد وصولي.

كان يوماً بارداً ومخيفاً بالإضافة إلى أنه كان عليّ أن أركب إحدى المواصلات العامة. وقعت قرعتي في أتوبيس قديم وغيرمريح إرتديت ملابس ثقيلة ووضعت الإيشارب على رأسي حتى أراعي الثقافة التي أعيش فيها وأيضاً أعطتني هذه الملابس الثقيلة بعض الدفء الذي كنت في حاجة إليه في ذلك الطقس البارد جداً خصوصاً أن معظم النوافذ في الأتوبيس كانت بدون زجاج.

عندما وصلت إلى سوريا، كان بعض الأولاد في الأتوبيس يتساءلون بصوت مسموع فيما بينهم عنّي من أكون؟ ولماذا أتيت وأين أذهب؟ وفجأة توقف السائق وكان يتكلم بصوت مرتفع موجهاً حديثه إلى بعض الأولاد الذين كانوا أكثر فضولاً وإزعاجاً وقال لهم وهو يشير إليّ في ذلك الوقت هرب الدم من أطرافي وشعرت أن أطراف أصابعي تتجمد من الخوف ثم وجدته يقول: نحن نشكر هذه المرأة السوفيتية التي جاءت إلى سوريا بلباس محتشم وتتحدث اللغة العربية وليست مثل النساء الغربيات اللاتي يأتين للسياحة وهن ترتدين ملابس خليعة ولا تعرفن كلمة واحدة عربية.

ثم شكرني لأنني غادرت الإتحاد السوفيتي وقبلت أن أتي إلى سوريا لأعيش وأعمل فيها. وبينما عاد الدم يجري في عروقي وتنفس الصعداء شكرت الرب وقررت أن ابتسامة صامئة وإيماءة مني هي أفضل وأأمن رد فعل يمكن أن أظهره في هذا الموقف وتمنيت من كل قلبي أن يظل جواز سفرى الأسترالى مستتراً وبعيداً عن أنظار أى أحد وتمنيت أن لا يُوجه إليّ أى أحد سؤالاً يُلزمني أن أفصح عن هويتي الحقيقية.

معجزة المعجزات أننى قد وجدت أخيراً سيارة المستشفى وتمكنت من إسترجاعها إلى المستشفى. صحيح أنها كانت مُعطلة لكن على أى حال قد أصبحت في حوزتنا مرة أخرى بعد فقدانها عشرة أشهر.

ها هو دليل آخر من دلائل العناية الإلهية العجيبة والممتلئة بالطرائف!

وأخذت ايلين تتذكر من ذكريات أخبار الحروب فذكرت قصة أخرى سطع فيها شعاع من نور وسط ظلمة وبؤس الدمار. موقفاً صعباً وطريقاً في نفس الوقت.

قالت: عند بداية حرب الخليج عام ١٩٩٠ أحاطت القوات الأردنية حول المستشفى في مفرق لأنهم خافوا لئلا يُشن هجوم على القاعدة الجوية القريبة من موقع المستشفى وخلال هذه الفترة كانت هناك مظاهرات في المدن الكبرى ضد التحالف الغربى. لم تكن لدينا أى

مشكلة من الوطنيين الأردنيين لكن اكتشفنا أن هذه المظاهرات يندس فيها عناصر متطرفة يمكن أن يصدر عنها عنفاً في أى وقت دون أن يتم السيطرة عليه. ونظراً لأنى لا أريد أن أحمل خبراً سيئاً لعائلات فريق الشباب العاملين معنا لذلك نصحتهم ألا يتواجدوا في طريق يجدون فيه هذا النوع من المظاهرات في أى مكان بل عليهم أن يتجنبوا هذه المواجهات التى قد تكون لها عواقب غير طيبة إذا ما استهدفهم واحد من المعاديين للغرب.

في أحد الأيام كنت أنجز بعض الأعمال في العاصمة على بعد ٣٠ كم من مفرق وكنت أقود سيارة في طريق ذى إتجاه واحد وفجأة أغلق الطريق ورأيت مظاهرة كبيرة وتعالّت الأصوات حولى ولم أتمكن حينها من الرجوع بالسيارة أو الحركة هنا أو هناك فوصلت إلى نقطة على الطريق فيها حشد كبير من الناس وتعالّت الهتافات "الموت لهؤلاء الغربيين" فغطيت رأسى بالإيشارب الذى لا أخرج بدونه وكان ذلك محاولة منى لأخفى هويتى الأجنبية بقدر المستطاع.

وفجأة اتجه إليّ أحد المتظاهرين وحاول أن يفتح باب سيارتى وأنا أحاول بكل طاقتى أن أقاومه و أجعل الباب مُغلقاً وعندما لم ينجح فى فتحه رأيته يصيح ويقول : "من يستطيع أن يتحدث إليها بالإنجليزية ؟" فأدركت وقتها أن الإيشارب الذى على رأسى لم يفلح هذه المرة.

وحتى هذه اللحظة لم أكن قد تكلمت إليهم بأى شئ لذلك التفتُ إليهِ وكلمته بالعربية: ماذا تريد أن تقول لى ؟ فنظر إليّ بابتسامة رقيقة وقال: فقط أردت أن أقول لك أن طرف الجيبة محشور فى باب السيارة وقد إتسخ بالطين هل تسمحى لى بأن أفتح الباب حتى تتمكنى من سحبها للداخل.

فشكرته على التو بامتنان شديد بكل التعبيرات المناسبة - إن اللغة العربية لغة غنية بالتعبيرات البليغة الحية - بشعور من التقدير والارتياح. تمنيت لأولاده بالبركة والخير ودعوت بالخير أيضاً من أجل أحفاده الذين لم يأتوا للوجود بعد و شكرته من كل قلبى.

وقالت ايلين بطريقتها المعهودة فى الدفاع عن هذا الشعب الذى تكن له الحب والتقدير: إن هذا الشعب الذى يبدو جافاً تحت قشرته الصلبة ينبض قلب ملئ باللطف والطيبة والشهامة، ليس غريباً أن نحبه.

بالنسبة لى فأنا لا يسعنى سوى أن أشكر إلهى فى صمت من أجل حمايته مرة أخرى لصديقتى العزيزة ايلين.

ياله من ظرف مخيف قد تحول إلى موقف طريف ! أنا أعرف أن صديقتى تؤمن بقول المزمور "أما أنا فعليك توكلت فى يدك آجالى" (مز ٣١ : ١٤ ، ١٥).

لدى الكثير الذى يمكن أن أقوله عما فعله الرب معهما عبر السنوات الطوال فى أوقات الأتعب والحوادث والأخطار من كل نوع نعم "حروب وأخبار حروب"

الفصل التاسع (أطفال)

لقد كسبت ايلين البدو ليس فقط بسبب طلاقها في اللغة العربية وتأقلمها مع الثقافة العربية وأمانتها ووفائها في أوقات الحرب وعملها في المستشفى لمرضى السل، لكن أيضاً كسبتهم في الأساس بسبب محبتها الشديدة لهم والتي تدفقت إليهم من كل ناحية. نادراً ما تمضي ليلة في المستشفى دون أن تحتضن أحد الأطفال معها يكون في حاجة خاصة إلى الإهتمام. أحياناً يكون لوقت مؤقت بسبب طفل في مرحلة مرضية يكون فيها الطفل منزعاً وأحياناً كثيرة يكون لمدة طويلة. قالت ايلين : رغم أنني لم أنجب أطفالاً لكن كان من دواعي سروري الشخصي أن أربي تسعة أطفال بدويين معظمهم قد ماتت أمهاتهم أثناء الولادة وأبائهم لم يجدوا من يعتني بأطفالهم الحديثي الولادة.

كانوا يأتون بهم إلى يترجون المساعدة. وأول طفلة عندي عمرها الآن ٢١ سنة وتعيش في سوريا وربما تزوجت لقد فقدت الاتصال بها بسبب بُعد المسافة بيننا لكن من دواعي فخرى وسروري أن تكون معي منذ ولادتها حتى هذا العمر. أى أم أو أب يعرف كيف يتعلق بطفل عبر السنين، لقد فعلتها مرة ومرات.

الأطفال التالون كانوا من أب كان يعيش بالقرب من المستشفى جاءني يوماً إلى المستشفى في حالة عصبية وسألني عما إن كنت أستطيع مساعدته وقال لي أن زوجته كانت قد ماتت أثناء الولادة وتركت له توأم.

فسألته إن كانت حالتها الصحية جيدة. فأجاب نعم إنهما بحالة جيدة ، لم أكن أظن أنني أستطيع أن أعتني بالاثنتين لذا قالت لي صديقتي المتعاونة د. سولتاو أنها يمكن أن تساعدني بواحد منهما وأن أتولى أنا الآخر.

فقلت للرجل: أحضر الولدين إليّ . لقد صُغقت عندما رأيت الطفلين الذين أكد والدهما أنهما بصحة جيدة، كان وزن الأول ١٥٠٠ جرام والثاني يقل عنه و كان ضعيفاً جداً ومريضاً وهكذا بدأت قصة أنور ومنير منذ ١٤ عاماً مضت.

كانا جزءاً من حياتنا حتى يومنا هذا وأكملت ايلين قصتها وقالت :عاشا بيننا سنتين ونصف ثم شعرنا أنهما في حاجة إلى عائلة وأردنا أن نخرجهما من جو المستشفى كانا معرضين للمرض والعدوى.

والشيء المدهش أنه رغم أن السل مرضٌ معدي لكن لم يُصَب أحدٌ من فريق العمل مرة واحدة بهذا المرض. وعندما نذكر الثلاثة وأربعين عاماً من الخدمة التي مضت نستطيع أن نشهد عن حماية إلينا القدير التي تفوق أى قياس وتقدير.

كانت إيلانور قد أصيبت وهي طفلة في كوريا- كما سبق الذكر- بالدرن وقد شفيت قبل العملية التي أجريت لها في ممفيس تنيسى بالولايات المتحدة. حيث أزيلت واحدة من رئتيها

وايلين أيضاً أصيبت بالدرن وهى فى مدرسة التمريض فى أستراليا وهذه العدوى الأصلية ظهرت مرة أخرى فى مفرق ونظراً لإحتمالية إصابة الطفلين التوأم قررنا ونحن نضغط على مشاعرنا بعد صلاة كثيرة أن يعود الطفلان ليعيشا فى الخيام.

وقالت ايلين بامنتنان: لقد تربيا مع الأب وزوجة أخيه الذين أحبوهما جداً واستمر الولدان يأتیان فى زيارتهما الأسبوعية ليوافلا درس الكتاب معهم لقد عرفوا معنى أن يكونا مؤمنين بالرب يسوع وأسماءهما كانت على مسمى فأنور معناه مستنير بالله ومنير معناها يشع بنور الرب. وصلاتنا أن هذين الطفلين يحملان النور الأعظم إلى قبيلتيهما وشعبيهما وهم ينموان من يوم الى يوم فى الإيمان.

من تسعة سنوات مضت دخلت حياتى طفلة عمرها ٣ أيام اسمها نورا ماتت أمها أثناء ولادتها و هذا يحدث مراراً بسبب ندرة الخدمة الطبية فعندما تتعسر ولادة أم وهم فى خيامهم ويواجهون أى نوع من التعقيدات لا يسعفهم الوقت ولا الإمكانيات كى يأتوا بها على الفور للمستشفى وغالباً ما تموت الأم قبل أن يصلوا إلينا لتتال الإسعاف اللازم هذا ليس معناه أنهم مُهمّلون من ذويهم بل السبب ببساطة يرجع لعدم إتاحة المساعدة الطبية حالما تحدث المشكلة.

هكذا جاءتنا الطفلة نورا، تلك الطفلة النحيلة والتي بدون شعر. كطفلة صغيرة لم تكن جميلة لكن شخصيتها الرائعة أضفت عليها حُسنًا عَوْضًا عما افتقدته من جمال المظهر بالرغم من أنها عندما كُبرت وصارت شابة تمتعت بطلعة مُبهجة وجذابة.

عندما كان عمرها شهوراً قليلة مرضت مرضاً شديداً. أغلب الظن أن ذلك المرض بسبب طعام ملوث ربما احضره لها أحد الأقارب أثناء زيارتهم لها.

تقول ايلين: أن حالتنا كانت بائسة بسببها وقد اتصلنا بكل الأصدقاء لكى يشاركوننا الصلاة من أجلها.

أنا أتذكر عندما طلبتني ايلين على التليفون يوماً فى ساعة متأخرة من الليل وكانت تجهش بالبكاء بقلب مكسور على حالة نورا الميئوس. منها فطلبنا من كل الكنيسة أن ترفع صلاة من أجلها وقد استجاب الرب وأنقذ حياتها.

وتقول ايلين: نحن نؤمن أن الرب أعطاها عمراً جديداً لتنمو وتتعرّف به. وظلت تأتى للمستشفى وتقضى بضعة أيام فى الأسبوع معنا حتى بعد ما كبرت وعادت إلى حياتها فى خيام الصحراء و الآن تعيش نورا مع أبيها وزوجته وتحظى بمعاملة طيبة منهما.

ولأنها تأتى باستمرار إلينا وبأشواق خاصة دفعنى هذا أن أسألها لماذا تحبين أن تأتى إلينا من وقت لآخر ؟ مع أن مجيئها معنا أن تبين على سجادة على الأرض بجوار سرير ايلين وتلعب مع بعض الأطفال من المرضى فأجابت نورا "لأنك تحبينى وتحضنينى وتساعدينى فى إستحمامى وتمشيطى لي شعرى وتقرأى لى قصة وتقبلينى قبل أن أذهب لأنام كل ليلة" هذا بالفعل ما تحتاجه كل بنت وكثيرات منهن قد حُرمن مما يستحقونه لكنهن يفقدنه فى حياة الصحراء الجافة حرقاً وعاطفياً.

احتفظت ايلين بفستان جميل لنورا حتى عندما تأتي للمستشفى تأخذ حماماً ثم تلبس الفستان. أذكر مرة في أحد الليالي كان مع ايلين نورا وأنور وطفل جديد حديث الولادة، وكان الثلاثة أطفال معها في غرفتها عندما استيقظت ايلين ووجدت أن أنور قد أخذ فراشه ونام خارج الغرفة، فسألته: لماذا فعل ذلك؟ فأجابها: كيف أحتمل صوت البكاء والإزعاج بالداخل وخصوصاً رائحة الطفل الصغير هذا، كما أنني لم أعد أنام بجوارك كما كنت. .. لأن الطفل الصغير أخذ مكانه لكن لم تُرد ايلين أن تقول له أنه وهو طفل صغير كان أكثر إزعاجاً وكانت رائحته ليست أقل سوءاً من رائحة الطفل الجديد. كان الأطفال يعشقونها كما كانت هي أيضاً.

كانت تتعجب كيف يتكيف الأطفال بسرعة مع نمط الحياة الغربي بالمستشفى حتى أن البنات اللاتي عُدن إلى خيامهن ويبتن على الأرض عندما تترددن مرة أخرى على المستشفى تتحولن إلى شخصيات ناعمات بكل ما فيهن من أنوثة ورقة ساحرة. إنه أمر يُحرّك المشاعر حقاً عندما ترى كم يمتلئ قلب ايلين بالحب لكل الأطفال الذين بالمستشفى وعلى وجه الخصوص الذين ربّتهم بنففسها. لم تكن فقط تُوفّر لهم الطعام والملابس وتعتنى بصحتهم لكنها غمرتهم بحبة شخصية وخاصة الذين احتضنتهم منذ الطفولة المبكرة.

الأمر الذي لا مفر منه هو أنه بعد كل هذا عليها أن تقوم بتضحية عظيمة عندما يلزم أن تُعيدهم إلى الخيام . كم هو صعب عليها حتى رغم علمها بأنها ستراهم مرة أخرى. ربما تتعجب كما تعجبُ أنا و سألتها كيف وجدت وقتاً يكفي أن تعتنى بهؤلاء الصغار رغم أنها تخدم ٦٠ مريضاً بالمستشفى !

فقاطعتني بسرعة: أحياناً يكون الموقف صعباً ومُحبطاً ومرات كثيرة لا أحظى بقدر كاف من النوم ثم إستطردت بنغمة هادئة وبشوشة وقالت: لكن ذلك من دواعي سعادتي وهو أمرٌ أتمتع به شخصياً وأنا أفعله. كنت أود أن أعرف كيف يسير يومها في المتوسط، فقالت لي : كمديرة للمستشفى لا يوجد عندي أبداً ما هو متوسط.

وحاولت أن أعرف ما هو جدول حياتها اليومي فكان كما يلي:
الساعة ٥ صباحاً : استيقاظ ثم وقت التعبد الفردي حتى الساعة ٦,٣٠ صباحاً
الساعة ٦,٣٠ صباحاً : الإفطار وتأمّل تعبدى مع بعض الممرضات .
الساعة ٧,٠٠ صباحاً : مراجعة البريد والمراسلات
الساعة ٨,٠٠ صباحاً: العمل في العيادة من فحص وعلاج للمرضى
الساعة ١٠,٠٠ ظهراً : الغذاء وبعده تبدأ بالأعداد لاجتماعات المساء مع المرضى وتُعقد هذه الاجتماعات خمسة أيام في الأسبوع واثنان من هذه الاجتماعات مخصص لمناقشة المسؤوليات الإدارية
الساعة ٦,٠٠ مساءً : اجتماع مع النساء المريضات ويعقد خمس مرات بالأسبوع .

بعد وجبة العشاء تقوم ببعض الأعمال الإدارية مثل طلب شراء أدوية وإجراءات حكومية وكتابة خطابات شكر للمتبرعين الذين وصلت عطاياهم إلى المستشفى .
هذا تقريباً ما تفعله كل يوم وأضف إلى ما سبق مسئوليتها فى مقابلة الزوار الرسميين والمسؤولين بالحكومة.

وفى الحقيقة لا يخلو الأسبوع الواحد من مقابلتين على الأقل، كما كانت تقوم بمقابلة واختيار الموظفين الجدد بالإضافة إلى تواصلها مع الهيئات التى تُرسل خُدماً للخدمة معها وكان ضمن مسئوليتها السفر إلى العاصمة لتقضى المصالح الحكومية اللازمة وكمديرة وجب عليها أن تحضر المحافل الرسمية التى تُدعى إليها المستشفى (خلال الثلاثة أسابيع التى تلت إحدى زياراتها للولايات المتحدة حضرت اجتماعات مختلفة لتناول العشاء مع سفراء ومسؤولين من الحكومة).

آخر أخبار لقاءاتها كما أتذكر عدة لقاءات مع سفراء السويد وسويسرا وبريطانيا الذين يهتمون بما يُقدّم للبدو من خدمات وكانت تفعل ذلك على سبيل إعلامهم بما يجرى وليس بما ينبغى أن يكون.

عندما تاتى ممرضات أجنبيات جديداً من مدارس اللغات كانت ايلين تقوم بتدريبهن فى تلك المستشفى المتميزة.

فوق كل ذلك فهى تخصص وقتاً لمتابعة المؤمنين الذين عرفوا الرب خلال اقامتهم بالمستشفى وتقوم بزيارتهم فى خيامهم فى الصحراء.
كانت تُضحى بوقت راحتها بطيب خاطر ورضى وتعتنى وتربى كل طفل جديد يأتى إليها إذ كانت تعلم إحتياجه الشديد لهذه العناية ثم تعيده إلى ذويه فى الخيام طفاً صحيحاً.
يالها من أم حنون رقيقة ومُضحية.

"من قَبْلُ هذا الولد باسمى يقبلنى. ومن قَبْلنى يقبلُ الذى أرسلنى. لأنَّ الأصغر فيكم جميعاً هو يكون عظيماً" (لو ٩ : ٤٨).

الفصل العاشر "الحفل الذى يجمع الشمل"

"وإحفظوا أنفسكم فى محبة الله". (يهوذا ١ : ٢١)
المناسبة السنوية المتميزة بالنسبة لايلىن هى احتفال الكريسماس .
وقوة جاذبية هذه المناسبة جعلها بلا نظير. أكثر من ٢٠٠ شخص يلتقون فى كل موسم
للكريسماس لكى يحتفلوا بهذه المناسبة المسيحية.
والضيوف هم :مرضى سابقون والمرضى الحاليون الذين تعافوا وزوار من القرى
المجاورة من المؤمنين وغير المؤمنين.
مستشفى النور تمتلئ بالنور بالفعل بطريقة خاصة والأنوار تتلألأ فى هذه المناسبة المقدسة
ويلاحظها البدو جميعاً القريب والبعيد.
فى المجتمع البدوى عندما يرحل المرضى من المستشفى بعد تماثلهم للشفاء الجسدى وليس
الروحى فهم يعودون إلى عالم محروم من محبة المسيح التى وجدها تتدفق داخل
المستشفى. أما الذين يحصلون على الشفاء الروحى أيضاً فهؤلاء يخرجون من المستشفى
وهم يأخذون المسيح معهم.
لكن فى كلتا الحالتين تجدهم بالخارج يفتقدون جو المحبة الدافئ الذى جذبهم للإيمان
والبنیان أيضاً. وهم يترجون لو أمكن أن يبقوا فى تلك الجنة. جنة الرجاء والشفاء والحب.
ويتوقعون أن يكونوا محفوظين فى محبة الله.
هذا الإحتفال السنوى بدأ منذ أن ظهرت المستشفى إلى الوجود.
وتقول ايلين أنه يقام بصورة بسيطة للغاية.
أولاً : يُعقد إجتماع صباحى تعبدي والذى يشمل قصة الميلاد التى تعرض بإستخدام
(اللوحة الوبرية)، ثم فرصة للترانيم والتسبيح وخصوصاً الترانيم التى تعلمها المرضى فى
المستشفى. ثم يقوم واحد من الخدام فيشرح للضيوف بوضوح لماذا نحن نفرح ونحتفل
بميلاد الرب يسوع.
ثم يوزعون هدايا الميلاد لكل واحد من الحاضرين. إن البدو فقراء جداً ولديهم القليل جداً
لذلك أى شئ يحصلون عليه حتى لو كان صغيراً يجلب لهم سروراً كبيراً.
الهدايا غالباً ما تكون إشارات للنساء وجوارب للرجال وبالطبع فإن الأطفال لهم نصيب
فيما يجعل أى طفل سعيد فى أى مكان فى العالم، بالونات وحلويات ولعب متنوعة.
ويتبع توزيع الهدايا مباشرة وجبة الكريسماس التقليدية وما يقابل "الديك الرومي وحوائه"
لديهم هو وليمة أسطورية ، فهم يقدمون صوانى قطر الواحد حوالى متر ونصف عليها
طبقات من الخبز القمحى الرقيق وفوقه كوم من الأرز سمكه ٢٠ سم وقطع اللحم الضانى
المغموسة فى الصوص المسبوك يوضع فوقها.

والصوص يصنع من جبن الماعز الذى يجفف فوق سقف الخيمة وكل الوجبة تتزين بالبقدونس ويرش المكسرات من اللوز والبندق المحمر. وبعد تقديم الشكر للرب يجلس الضيوف حول الصوانى على الأرض أو يقفون ويضعون الصوانى على منضدة وبالطبع تؤكل الوجبة بالطريقة البدوية باليد اليمنى.

وتقوم المضيفة بتوزيع قطع اللحم على الضيوف وفى كل صينية توجد رأس الخروف تزين مركز الصينية.

هذه الوليمة يُسمونها "المنسف" وبعدها تُقدّم الحلويات والكعك مع الشاي. عموماً الوجبة شهية جداً طالما لم تتل الشرف بأكل (عين الخروف).

وعادةً أقوم بالاتصال بايلين حيث ليلة الكريسماس فى مفرق تسبق أمريكا (كاليفورنيا) بـ ١٠ ساعات تقريباً ورغم أن ايلين تكون مرهقة جداً لكن سعيدة جداً ومنتعشة بالمناسبة.

فكل الإعداد والترتيبات وتغليف الهدايا والطهى يحتاج إلى مجهود كبير مع كل أعمال النظافة التى تقوم بها مع فريق العمل بالمستشفى كل ذلك يهون عليهم فى مقابل أن يروا أحبائهم البدو سعداء بهذه المناسبة.

مرة أخرى يسمعون فيها الأخبار السارة التى من خلالها تستعرض "الريسة" (كما كانوا ينادونها) محبة المسيح. مرة جديدة يلمسون فيها بعمق تلك المحبة الشديدة تتدفق بذات قوتها من فريق العمل بالمستشفى.

بعد الكريسماس بعدة أشهر غالباً تقوم ايلين بعمل زيارات لخيام بعض الذين حضروا احتفال الكريسماس وقد لاحظت حتى الشرائط الملونة التى كانت مع ورق التغليف قد احتفظوا بها فى بيوتهم ليتذكروا هذه المناسبة.

مؤخراً تبنت خدمة "محفظة السامرى" برنامج اسمه (مشروع أطفال الكريسماس) عائلات من الولايات المتحدة مع بلاد أخرى قرروا أن يعيدوا صناديق هدايا فى حجم علبة الأحذية أو أكبر ويملاؤها بهدايا ويرسلونها الى الأماكن ذات الاحتياج الشديد فى مناطق مختلفة من العالم.

وبدأت مستشفى النور تستقبل دفعة من هذه الهدايا كل عام وفى وقت الكريسماس تقول ايلين أنهم يذهبون للخيام ويقدمون الهدايا للأسر المحتاجة .

فى يوم ممطر كانت توزع علب الهدايا وجاءت إليها امرأة ومعها خمسة أولاد وكانت ملابسهم خفيفة ورثة وكانوا يرتعشون من شدة البرد وقالت: كنت أرى الفرحة فى عيون الأطفال وهم يسحبون ملابس ثقيلة لتدفئهم من علب الهدايا، حتى الطفل الصغير الذى كان ملفوفاً بفوفة رقيقة نال نصيبه وأخذ بدلة (ووتر بروف) بسوستة على قياسه تماماً ورأيت الإمتنان فى عيني المرأة وأولادها وقد ارتسمت فى ذهني أسرة أخرى على الجانب الآخر من العالم قدقادها الروح القدس لكى تشتري تلك الهدايا وترسلها إلى محفظة السامرى ثم فكرت فى أناس كرماء أعطوا مالاً لمحفظة السامرى حتى يمكن شحن هذه الهدايا إلى الأردن.

آه لو يرى كل هؤلاء الناس ما أراه الآن لتذكروا وفهموا ما قاله السيد
"لأنَّ أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه" (مت ٦: ٨)
ياله من أمر رائع أن الله يدعو كل عام أحبائه البدو لهذه المناسبة السعيدة (الحفل الذي
يجمع الشمل) حتى يطمئنهم ويذكرهم أنه دائماً يذخر لهم بركات ليظلوا محفوظين في محبة
الله

فمحبة الله لا تحدها حدود بيت أو مستشفى أو مكان بل تتدفق لكل من يقبل عطيته.

الفصل الحادى عشر "إنطلاق إلى الوطن"

إنها لحظة من اللحظات التى يبدو فيها أن الزمن قد توقف والأنفاس أيضاً توقفت وهبت عواصف الخوف وغوائل الدهر وقد ساد الصمت الرهيب.

فى ٢١ نوفمبر ١٩٩٧ دق جرس التليفون مرة أخرى، هذه المرة لم أتلّق أنا المكالمة بل زوجى وسمعتّه يُجيب بصوت منخفض يئن ويقول: كيف؟؟ ياخبر! وأشار إليّ لكى أرفع سماعة أخرى وعندما رفعتها سمعت صوتاً حزيناً يجهش بالبكاء على الطرف الآخر من الخط وتستطيع أن تشعر بالألم عبر آلاف الأميال ألماً شديداً ينهش فى قلبى.

بينما تصارع ايلين محاولة أن تتمالك مشاعرها و بين الصمت الرهيب يحاول زوجى أيضاً أن يحبس دموعه ، قالت لى بصوت منخفض: إيلانور ماتت نتيجة لحادث حريق عارض. وانعكست آلامها على نبرة صوتى ووجدت نفسى أسأل ايلين بحزن:

أه يا ايلين كيف حدث هذا ؟ وتستمر ايلين محاولة أن تضبط مشاعرها فقالت: أنها لا تعلم جيداً ما حدث بالضبط وربما لن نعرف أبداً لكن نحن نشك أن هذا قد تم حين كانت تُوقد موقد الكيروسين فى غرفة المعيشة فى بيت الضيافة الذى تقيم فيه.

يبدو أنها حاولت أن تُطفئ النار التى شبت فيها عن طريق سحب بطانية من غرفة النوم كى تُلّف نفسها بها دون أن تدرك أن هذه البطانية مصنوعة من الياف صناعية قابلة للإشتعال ودخان هذه البطانية المحترقة سام جداً.

و بينما كانت تلف نفسها بهذه البطانية على أمل أنها تطفئ النار ربما اختنقت من الدخان الكثيف السام ويبدو أنها فتحت الباب لكنها لم تخرج وربما عادت لتطفئ النار بنفسها.

بكلمات ايلين المتقطعة المليئة بتعبيرات الحزن والألم قالت عندما ذهبْتُ لأراها لأنها لم تأت على العشاء، وجدتها ملقاة على الأرض فاقدة الوعي وبها حروق شديدة والكلب المُحبب إليها مُلقى بجانبها ميتاً فقد إختار أن يموت بجوارها عن أن يهرب من الباب المفتوح.

وبينما تتذكر ذلك المشهد الأليم عادت ايلين لتنفجر فى بكاء شديد وتأثير هذه المأساة بدأ يضرب قلبى مثل طلقات الرصاص.

لقد ماتت إيلانور محروقة بالنار. هل بهذه السرعة؟! شريكة الخدمة الأمينة لايلين لمدة ٤٠ سنة، صديقتها الوفية وخادمة الرّب التى عملت عمله بقلب راض فى تلك المنطقة المقفرة فى الصحراء ها هى قد عادت إلى حضنه .

من يستطيع أن يصف الألم الذى يعرض قلب ايلين من تلك التجربة المرة؟ وأى كلمات يمكن أن تُعزّى أختنا فى هذا الظرف؟.

بعد أن انتهت المكالمة التليفونية جلسْتُ هناك فى غيبوبة ، أنا عرفتُ أنى سمعتُ صوت ايلين لكن لم أكن أصدق ما سمعت لم أفهم ما حدث ودام ذلك لعدة أسابيع. لم أكن قادرة على إستيعاب الموقف وغير متأكدة أن كنت سأستوعبه أم لا .

قالت ايلين: أن إليانور ليس في جسدها ذرة واحدة من الغيرة.
إنها من الشخصيات النادرة في اخلاصها والتي عاشت حياتها كلها فقط لمجد الله.
إن إليانور الشجاعة الأمانة والمخلصة، إليانور الرائدة قد مضت .
ولن نعود نسعد بضحكتها المبهجة ، لن نعود نسمع حكمتها المتميزة. نعم لقد خسرناها هنا
في هذه الحياة ربما لست قادرة أن أدرك الموضوع برمته لكن هذه حقيقة، هذا ما حدث.

بقية القصة شاركتني بها ايلين في وقت لاحق .لأن المستشفى (المفرق) غير مُجهزة لعلاج
الحروق فقد أخذوا إليانور إلى أقرب وحدة على بعد نصف ساعة حيث عاشت هناك لمدة
سنة ساعات و قد أبلغ أحدهم الأميرة ، وفي خلال ساعة وجدتها ايلين بجانبها ولم تتركها
حتى انتهت الجنازة.

وخلال هذه الفترة من الوقت رغم الألم الشديد استعادت إليانور وعيها لبعض الوقت
وبمعلوماتها كطبيبة عن حجم الحروق التي أصابتها قالت لايلين: لا داعي لبذل ما هو فوق
المستطاع من فضلك.
لقد علمت أنها ستموت لذلك أرادت أن تُجرى أقل معالجة طبية. منتظرة وقت الرحيل الذي
قد اقترب.

ورغم أنها كانت تواجه الموت لكن كان لديها سلام تام.
قالت ايلين: سألتها إن كانت تريد أن أقرأ لها من الكتاب المقدس.
فقلت لى: أنها تحب ذلك. ولما سألتها من أى جزء تريد أن تسمع قالت: اقرأيه كله !!.
ثم سألت إذا ما كانت الأميرة موجودة فقلت لها نعم.
ولأن الأميرة كانت بجانب ايلين بجوار سرير إليانور فقد شاهدها وهي تموت.
لقد إندهشت وإبهرت بالسلام العجيب الذي كان عندها عند انطلاق روحها، وبينما هم
يغادرون المستشفى سألت ايلين وقالت لها: هل هذا السلام بسبب الخدمة التي كانت تعملها ؟
فأجبتها ايلين : في الأساس لا. لأننا لا نُخلّص لأننا نخدم بل إننا نخدم لأننا قد خُلصنا.
ولأننا قد تمتعنا بخلاص الله وسلامه. فهي لها سلام مع الله بربنا يسوع المسيح (رو ٥ : ١)
لديها سلام لأنها متأكدة أن خطاياها قد غُفرت. بينما أعمالها لم تمنحها ذلك الغفران لكن
لأنها أحبت الله فإن محبة الله جعلتها تعمل مشيئته فأحبت البدو.
لذلك لم تكن فقط حياتها شهادة لهذا الشعب بل كانت في موتها أيضاً إذ رحلت بهذا السلام
الكريم.

وتذكرت ايلين آخر عبارة قالتها قبل موتها عندما ابتسمت لها قبل أن تدخل في غيبوبة
الموت وهمست لايلين: أنا بخير.

وكانت هذه كلماتها الأخيرة.

قالت ايلين أشكر الرب أن إليانور ذهبت إلى السماء وهي لم تزل تعمل باجتهاد في عمل
الله، لم تكن عالة أبداً على الناس ، ولم تضعف ذهنياً ولا جسدياً بل في عمر الـ ٨١ سنة

كانت مُرشّحة لوظيفة مستشارة مرض السل في برنامج الصحة العالمي. كانوا يدعونها (قاموس السل).

إن الحب الذى انسكب من قلب إليانور لشعب البدو كان غامراً ومشجعاً. بين الـ ٥٠٠ شخص الذين حضروا الجنازة كان هناك ٣٠٠ منهم غير مسيحيين منهم من جاء بالجمال ، ومن جاء بالسيارة ، ومن جاء بالأتوبيس. كثيرون أتوا من رأس النقب التى تبعد ٣٠٠ كم لى يُودعوا الدكتوراة المحبوبة.

تأثرت ايلين كثيراً بمحبتهم وتضحيتهم ليس فقط بسبب الرحلة الطويلة التى أخذوها بل لأنهم ظلوا لمدة ٣ أيام كفترة حداد حزناً على الطبيبة المحبوبة، هذا معناه أنهم كانوا يبيتون فى أى مكان بأية طريقة.

لقد لمس قلبى جداً رغبتهم العميقة أن يُكرموا إليانور رغم أن أغلبهم من الرجال مما جعل الأمر مؤثراً إذ كانوا يعتبرون أن دور النساء فى هذه الحياة ثانوى حسب عرفهم و ثقافتهم.

أرسلت الأميرة ودعت فرقاً من جنود الجيش ومعهم البلدوزرات لى يُمهدوا قطعة أرض بجوار المستشفى لإقامة مراسم الجنازة.

وكان متوقع سقوط أمطار فى يوم الجنازة لذلك أقام المهندسون العسكريون خيمة كبيرة على الطراز البدوى تكفى لمئات من الذين جاءوا من أجل واجب العزاء. إن فريق العمل بالمستشفى تأثر جداً بالمحبة التى أظهرها أحباؤهم من غير المسيحيين. فلقد خصصت الصحيفة القومية المحلية صفحة كاملة لتتعى إليانور معبرين عن تعاطفهم وتقديرهم لحياتها وخدمتها الجليلة.

دعونى أشارككم بأحد خطابات التعزية التى وردت إلى ايلين من رتبة عسكرية كبيرة بالجيش و الذى قال:

نحن فى الأردن نلنا شرفاً كبيراً أن تعيش بيننا والآن ها هى أيضاً باركتنا وشرفتنا أن تترقد فى بلادنا. (طلبت ايلين أيضاً الطلبة لنفسها).

واحد من الأعباء المسيحيين العرب كتب هذه الكلمات الرقيقة المُفعمة بالمشاعر الطيبة العميقة، بدأ رسالته باقتباس من رومية (١٦ : ١٢) "..... التى تعبت كثيراً فى الرب" أيتها الطبيبة لقد رحلتى لكن الشفاء سيستمر لقد تعبت بتكريس الخدام الأمناء ، وأظهرت بطولة الشهداء ، ولمست قلوب الجماهير بمحبتك، وعطرت الأجواء بأنفاسك، ومع أن شمعتك قد أنطفأت برحيلك لكن النور سيبقى مضيئاً فى مستشفى النور ولن ينطفئ. كصديقة عزيزة قد رحلت عنا، لكن صداقتك لن تزول. لقد دُفن جسدك ولم يزل هنا لكن سيبقى حضورك فى كل منا فى نبضات عهدنا المجددة.

هذه الكلمات الرائعة التى خرجت من قلب صديق عربى محبوب و سطرها بقلمه ومشاعره ينطبق عليها "تفاح من ذهب فى مصوغ من فضة كلمة مقولة فى محلها" (أم ٢٥ : ١١).

كان لى امتياز أن أرى الجنازة فى شريط فيديو أحضرتة لى ايلين فى زيارتها الأخيرة. مع أن كل شئ كان باللغة العربية لكن لم يمنعى حاجز اللغة من المشاركة الشخصية فى الخدمة كلها. فرسالتها وصلت لقلبى ومشاعرى واخترقت كل ذرة فى كيانى. بدأت صلاة الجناز بقراءة:

"قد جاهدت الجهاد الحسن أكملت السعى حفظت الإيمان وأخيراً قد وضع لى إكليل البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل وليس لى فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً" (٢ تى ٤ : ٨، ٧).

أرسلت أكاليل الزهور من كل مكان فى العالم وغطت الورود التابوت وغطت جسدها، كل شئ ماعدا وجهها وكانت لابسة العباءة البدوية التقليدية والشفال البدوى على رأسها. كل القراءات الكتابية وكلمات العزاء قد أُلقيت بواسطة خدام عرب فى خيمة بدوية كبيرة حيث امتلأت وجوه كثيرة جداً بالدموع والحزن والحب.

وكانت ايلين وبجانبها الأميرة فى الصف الأمامى فى الخيمة وقد ارتدت كلتاها العباءة البدوية والشفال الأسود على رأسيهما وحولهما عدد من كبار رجال الدولة وأفراد من العائلة الملكية والأصدقاء من كل مكان.

وكثيرون كانوا يقفون خارج الخيمة ولم تسقط أمطار كما كان متوقعاً، أما عدد الحشود التى أتت فلا يُصدق.

وبعد لقاء الكلمات جاءت اللحظة المؤثرة فى البرنامج والتى تأسر المشاعر وتُحركها، عندما جاء البدو الذين حضروا ليلقوا النظرة الأخيرة ويودعوا إيلانور وهى فى الصندوق بحزن شديد.

عمق الحزن والتأثر لا يمكن التعبير عنه . البعض جاء وقبّل جبهتها والبعض وقف فى خشوع وقال لها الوداع وجاءت راهبتان من الروم الكاثوليك رسمتا رمز الصليب على التابوت وانفجرتا فى بكاء شديد وأحد الرجال لَوّح بيديه وقال لها إلى اللقاء. ثم رفعها الحمالون إلى مكان الراحة الأخير وهتف الكورال "بقرار الهللويا" بصورة فخمة ورسمية بروح الظفر والنصرة.

ولن تفوتك تلك الرسالة الموسيقية التى لا تقف أمامها حواجز اللغة أو حدود الثقافة، وأكاد أرى المسيح يشق طريقه عبر الثقافات والبلاد والأزمان بترنيمة الخلاص لكل الشعوب فى كل مكان . هلوليا هلوليا ملك الملوك ورب الأرباب المسيح حى وإيلانور ستحيا وكلنا نحيا فيه.

الإيمان بعمل المسيح الكامل هو الذى يُعطى النصر على هذا العدو الأخير الموت. ويُحوّل شوكتة إلى عبور ظافر ملئ بالرجاء.

دُفنت إيلانور فى ساحة المستشفى بالخارج مقابل غرفة ايلين ووُضع على قبرها لوحٌ تذكاريٌّ منقوشٌ عليه ما جاء فى (رو ١٦ : ١٢) " التى تعبت كثيراً فى الرب". وبعد دفن إيلانور بأيام كثيرة زرعت إيلين زهور النرجس والياقوت على قبرها وبينما كانت تسقيها جاء ولدٌ صغيرٌ من المرضى البدو وقال لها وهو يراقب ما تفعله "أليس جسد الدكتور فى هذا المكان" ؟ "وأنت تسقيها لكى تكبر ؟" ياله من سؤال غالى! يالها من خاتمة يُختم بها هذا الفصل من فصول حياة امرأة عظيمة.

"الماء الذى أعطيه يصير فيه (فيها) ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية" (يو ٤ : ١٤).

قالت إيلين عن إيلانور "لقد رقدت فى بستان الزيتون بالمستشفى، فى الأرض وبين الشعب الذى أحبته، فصارت بلدهم هى بلدها، ووطنهم هو وطنها لقد إفتقدتها كثيراً"

الفصل الثانى عشر "المسيرة سوف تستمر"

أروع ما فى هذه القصة أنها لن تنتهى بمجرد أن أضع قلمى جانباً إنها فقط البداية لفصل جديد فى حياة ايلين كولمان. هل أقول ذلك ببساطة كما ينتقل الواحد من مرحلة إلى مرحلة جديدة بكل سلاسة ؟ أبداً لا يمكن أن أجد الكلمات التى يمكن أن أعبر بها عن صعوبة تلك الأيام عليها.

عندما زارتنا ايلين بعد رحيل إيلانور . لا يمكن أن أصف الفراغ الأليم والعذاب والمعاناة النفسية بسبب فراق شريكة عمرها فى الخدمة والصديقة الوفية المخلصة. أنا أعرف أنها تريد أن تفضفض عن حزنها العميق لكنى لا أحتمل أن أحرك هذا الوجدع فيها وأخرجه إلى السطح، أظن أنه من الحكمة أن أتركها هى تفتح قلبها وتشارك بما تحتل مشاعرها أن تذكره.

وبتعبيرها مرة من المرات: إن فقد إيلانور مثل فقد ذراعى اليمنى. وفى مناسبة أخرى قالت: عندما غادرتُ مفرق هذه المرة تأثرتُ بشكل عميق، ودرتُ ملنفته إلى المستشفى وأنا أرحل وفكرت فى قلبى عندما أعود لن أراها ثانية، ساكون وحدى.

هل تتصور؟ لأكثر من ٤٠ عاماً من العمل معاً كفريق فى بلد نام. وواجهتا بالإيمان الكثير من الغرائب وركبتا معاً تلال الصعاب، وشاهدتا الرب يصنع بينهما معجزة تلو الأخرى. واتحدتا فى الصلاة بلجاجة إزاء كل ما كان يُكدر حياتهما ويُعطّل خدمتهما وهما تجدان المسيح الحى يقف جانبهما ويصادق على دعوتهما باستجاباته السريعة.

رأى المسيح يعلن نفسه للبدو الذين أحبوهم من أجل اسمه وهما يقدمان الشفاء الجسدى والروحى ثم الاجتهاد فى رعايتهم وتلمذتهم وتنشيتهم فى الإيمان فرحتين معاً وهما تريان الرب يرسل فعلة لعمله واحداً بعد الآخر.

هل تتصور بعد كل هذه الأمور التى اختبرتها سويلاً. الآن إيلانور مع الرب وإيلين بقيت وحدها. مع أنه لكل منهما شخصيتها المختلفة عن الأخرى لكن كانت كل منهما تُكمل الأخرى. لم تعتمد أى منهما على الأخرى بل كانت كل منهما مستندة على الرب. ربما هيا الرب إيلين، فى رحمته بها، عندما بدأت الخمة فى عيادة رأس النقب حيث تعودت أن تفترق عن إيلانور منذ بدء العمل بالعيادة.

حيث كانت إليانور تقيم هناك بينما كانت ايلين في المستشفى بمفرق وكانتا على إتصال دائم بالتليفون يومياً تقريباً لتتشاركا معاً أخبار العمل في كلا الموقعين.
وأحياناً كانت إليانور تأتي بمرضى إلى المستشفى وتقضى ليلة هناك ، أو ترافق ايلين والأميرة في زيارة للخيام السوداء بالسيارة التي كانتا تستخدمانها كعيادة متنقلة.
لكن على الأقل كانت تعلم أن اتصالها بإليانور لا يحتاج سوى مكالمة تليفون وإن رغبت في مقابلتها فالأمر يستلزم رحلة يوم قصير وتلتقيا وجهاً لوجه.
لكن الآن لم يعد باستطاعتها أن تفعل ذلك، إن إليانور الآن بعيدة عن أن يمكن الوصول إليها بمكالمة تليفون أو رحلة سفر.
الآن ايلين لم تنزل إحدى الاثنتين اللتين استخدمهما الرب بقوة.
و الروح القدس الذي قادهما إلى مفرق وأعانهما واستخدمهما في خدمة الشفاء هو سيستمر يرشد ويعين ايلين.

عندما حان الوقت لايلين أن تعود الى المفرق بعد زيارتها الأخيرة إلى الولايات المتحدة طلبتُ منها وقلتُ لها: من فضلك أكتبى لى ما تفكرين فيه وتشعرين به فى داخلك.

بدا الحزن فى عينيها وانحنت أكتافها وجلست فى ركن تستجمع أفكارها وهى تتمالك مشاعرها وأخيراً كتبت : كان عليّ أن أعقد لقاءات كثيرة لأتكلّم فيها فى أمريكا وأستراليا فى معظمها كنت أذهب وحدى وأترك إليانور فى الأردن لتكتب الشيكات وتظل لأى ظرف طارئ بوجه عام.

وإليانور كانت تستعد لى تأتى لأمريكا فى بداية عام ١٩٩٨ لتقدم تقريراً للكنائس التى تدعم العمل. موتها المفاجئ فى نوفمبر ١٩٩٧ قد غير خطة العمل.
أنا متأكدة أنه ليس سهلاً عليّ أن أقوم بذلك العمل مكانها لكن الرب كلّمنى من خلال كلمته بما جاء فى (يش ١ : ٥) "كما كنت مع موسى أكون معك، لا أهملك ولا أتركك". وذكرنى الرب أنه حتى إذا كانت خادمته إليانور قد ماتت فعمله سوف يستمر وكما كان معها سيكون معي فقط ينتظرنى أن أطيع كلامه بشجاعة لى أتقدم للأمام وأتشدد عندما أمسك فى مواعيده.

الآن أنا عائدة إلى الشعب الذى أحببته، إلى الخدمة التى دعانى الرب إليها. لكن ما يجرح أحشائي أن إليانور لن تكون فى انتظاري هناك لاستقبالي.

لا أظن أننا كنا مخطئتين فى فهم مشيئة الله فى حياتنا. لذلك سوف أعود للأردن وأستمر وحدى فى زيارة النساء اللواتي أحبين الرب يسوع.

وبينما كنت أحاول أن أتلمس طريقى ظن بعض الأصدقاء أننى قد أتوه بين الزحام. لكنى وأنا أشق طريقى فى دروب الصحراء وحدى فإنني أطبق ما قاله الرب فى وعده "..... قَوْمُوا فِي الْقَفْرِ سَبِيلاً" (أش ٤٠ : ٣) الطريق الذى أسلكه فى الصحراء وأعود منه إلى مفرق مرة أخرى.

لقد عادت الآن لتعمل ما كانت تعمله دائماً. نعم لقد ذهبت للصحراء لتزور المؤمنين هناك نعم لقد وجدت طريقها للبيت مرة أخرى.
هل يد الله لم تزل تعمل ؟

فى إحدى الرسائل التى وصلتني حديثاً من المستشفى قالت ايلين فى التقرير المُرسَل:
هذا الأسبوع كنت أفحص المرضى فى العيادة ثم جائتني فتاة بدوية جذابة وتوسلت إلى أن تدخل المستشفى وتُعامل كمريضة وعندما سمعت قصتها وافقت.
كانت إحدى قاريبتها تُعالج فى المستشفى ثم عادت إلى قبيلتها وروت لهذه الفتاة عن كل ما سمعته من أخبار سارة وعن التغيير الذى حدث فى حياتها.
وقالت الفتاة يجب أن أسمع بنفسى، أريد أن أعرف الحق، المتعلق بهذا المخلّص.
هذا هو ما أتى بى إلى هنا لأسمع عن ما تؤمنون به.
وكانت خلال فترة إقامتها بالمستشفى لا تكف عن طرح الأسئلة وتسمع بشغف شديد وتتعلم.
نحن نصلى من أجل خلاص نفسها حتى تكون هناك اثنتان مؤمنتان فى العائلة حتى ما يُشجع كل منهما الآخر
القصة لم تنته..... العمل مستمر
نعم المسيرة سوف تستمر

إن أردت أن أصف صديقتي ايلين فى كلمة يمكننى أن أقول أنها "شجاعة" لقد أظهرت جسارة متميزة منذ أن خطت خطواتها الأولى فى الشرق الأوسط حتى يومنا هذا.

- الشجاعة : فى أن تطيع دعوة الله إذ وهى شابة صغيرة قررت أن يكون الرب أولاً فى حياتها
- الشجاعة : التى جعلتها تقوم بعملية قيصرية فى الشارقة وهى تتبع تعليمات الكتاب
- الشجاعة : التى تركت بها مستشفى البركة فى بيت لحم لتخرج مع امرأة أخرى وتبدأ عملاً عظيماً فى مجتمع ذكورى فى قلب الشرق الأوسط .
- الشجاعة : التى جعلتها تعيش مثل البدويات تماماً فى حدود الطاعة لكلمة الله.
- الشجاعة : التى تثق بأن الرب ليس لديه مستحيلات.
- الشجاعة : أن تبين مستشفى من لا شيء.
- الشجاعة : أن تأكل (عين الخروف) إن استلزم الأمر لكى تكون للكل كل شئ لكى تربح على كل حال الأكثرين.
- الشجاعة : أن تربي أطفالاً وهى تعلم جيداً أنها لا تملك الاحتفاظ بهم.
- الشجاعة : أن تتأبر وتتأبر لمدة ٤٠ سنة.
- الشجاعة : أن تستمر تخدم بعد رحيل إيلانور.

الشجاعة : أن تقوم بنفس جدول العمل الشاق رغم أن جسدها يصرخ من الألم ولا يهدأ إلا بالمسكنات منذ أن تعرّضت لحادث السيارة. لا تستطيع أن تعيش يوماً بدون هذه المسكنات منذ عامين ونصف مضت.
أخيراً أصلى - بامتنان للرب على شجاعتها - أن تستمر أمانة للرؤيا التي تعيش بمقتضاها يوماً فيوماً وهي أن تصل إلى الخروف الضال.
عندما سألت ايلين: ماذا تريد أن يفعله هذا الكتاب؟
قالت: أريد أن يعرف الناس أن البدو العرب شعب رائع ويستحق أن أحبهم. وأرجو أن أكون قد حققت طلبتها من خلال هذا الكتاب. أن أحبائها من البدو قد لا يعلمون أن كتاباً قد نُشر يروى قصة حياتها وربما لا يشغلهم هذا الأمر.
إن لديهم شئ أفضل كثيراً لكى يقرأوه وهو محبة يسوع التى ظهرت فى تلك الخادمة الأمانة التى كرّست حياتها من أجله "ايلين كولمان".

ملاك الصحراء
.. هكذا دعاها المعجبون بها
بينما إن سألتها سيكون جوابها
"فأرة الصحراء" تدعو نفسها

خاتمة

نشكر الرب جداً من أجل هذه الحياة الرائعة التى أثرت منطقتنا بكل الحب و التضحية. إن ما قرأناه ليس هو كل شيء إنما هو جزء من بعض. هناك الكثير والكثير من المواقف و الأحداث التى لم ترد فى هذا الكتاب والتى لايمكن أن تُسجل أو تُذكر على الملأ ، لكنها تشير إلى الإله العظيم صاحب الأمانة المُنقطعة النظير و حفظه و سياجه حول خادمته الأمانة الفاضلة إيلين. ومن أكثر الأمور تشجيعاً إن مقرأناه تم ومازال يحدث فى منطقتنا؛ إن السيد مازال يطلب القلوب المكرّسة ليصنع بها الأمور العظيمة مثلما قرأنا، فهل نكون أنا وأنت من هؤلاء الذين يعملون لأجل الأمور الباقية؟.

لقد قام بعض العاملين بالحقل الطبى (اطباء و صيادلة) فى العاملين الماضيين بالذهاب لزيارة مستشفى النور بالمفرق للمساعدة فى العمل هناك، وكانت كل التعليقات بعد عودتهم: إن الرب يعمل هناك بقوة، وإن حياة خادمته الفاضلة إيلين مثلاً رائعاً يُحتذى به لكل من يريد أن يعمل بأمانة فى الحقل.

صلاتنا أن يحفظها الرب مستخدماً إياها بكل قوة لمجد اسمه إلى وقت مجيئه القريب. وأيضاً أن يحفظ المكان هناك منارة يزداد بريقها يوماً وراء يوم. الرب يبارك كل من ساعد فى إخراج هذا العمل إلى النور. وليكن الكل لمجد السيد . آمين.